الباب السادس

المؤامرة على الهوية وسبل النجاة

obeikandl.com

obeikandl.com

مراحل المؤامرة على الهوية

كان لانتصار الإسلام على أصحابِ الدِّيانات والهويات الأخرى أعظم الأثر في نُفُوسهم، فكان منهم مَن أحسَّ بعظمة الإسلام، فدخله بنفسٍ راضية، واجتهد في تعلُّم العربية، وأقبلَ عليها بشَغَف؛ ليفهم القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ص ومنهم من أكل الحقد قلبه، ولكنه لإدراكه قوة الإسلام،وعلم أنَّ السبيلَ للقضاء على قوة المسلمين ليس في مُواجهتهم بالسلاح، إنَّما في استخدام المكر والحيلة، فأخذ يتظاهر بالإسلام، ومن خلال هذا التظاهُر أخذ ينشر أفكارَه القديمة، وآراءه التي تفرق وحدة المسلمين، وتضعف قوتهم.

وقد اتَّخذ هذا الأسلوب بعضُ اليهود وبعض النصارى الذين أكل الحقدُ قلوبَهم؛ بسبب انتصار الإسلام عليهم، وإجلاء الرسول لهم من المدينة، ووصيته في آخر كلام له بإخراج يهود الحجاز ونصارى نجران من اليمن من جزيرة العرب، وقد تم إخراجهم في عهد عمر رضي الله عنه واختار لهم أرضًا جديدة بين الشام والعراق.

وكان ممن أكل الحقدُ قلبه ولم يستطعْ أن ينتقمَ لدولته التي قوَّض الإسلام أركانها: بعضُ الفرس، وبعض الروم، وبالأخص أنهم كانوا ينظرون إلى العرب بازدراء واحتقار، ولعلَّ مما يلفت النَّظر لمدى هذا الاحتقار تلك الكلمة الخبيثة، التي قالها ملك الفرس لما وصله كتابُ

رسول الله صَ فقال: عبدي يكتب إليَّ، وما كتبه يزدجرد إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قائد معركة القادسية، يقول له: إنَّ العرب مع شرب ألبان الإبل وأكل الضب بلغ بهم الحال أن تمنَّوا دولة العجم، فأفٍّ لك أيها الدهر الدائر ٠

بدأ هؤلاء الأعداء المتسترون في الإسلام يضعون الخطط؛ للتخلُّص من هذا الدين القوي،الذي قوَّض أركان دولتهم، ولا يُمكنهم مواجهته بالسِّلاح، إنَّما عليهم أن يواجهوه بتدبير خبيث يتم في السرِّ وفي مأمن من ملاحقة الدَّولة الإسلامية اليقظة، وإليك بعضَ نماذج هذا الكيد المستتر:

أولاً:الحركات الباطنية أولى حلقات المؤامرة على الهوية الإسلامية:

بدأت هذه الحركات في وقت مُبكر، وفي تستر كامل؛ نظرًا لضعفها، وإدراكًا منها لوعي المجتمع، وقوة إحساسه بأي أمر دخيل يُخالف هُويَّته وعقيدته وكانت حركة السبئيِّين، بقيادة عبدالله بن سبأ اليهودي هي أولى هذه الحركات، التي بدأت محاولات تشويه الهوية الإسلامية، من خلال المبادئ التي أخذ ابن سبأ ينشرها، وهي أنه وجد في التوراة أنَّ لكل نَبيٍّ وصيًّا، وأن عليًّا وصيُّ محمد، وأنه خير الأوصياء، كما أن محمدًا خير الأنبياء، ثم إن محمدًا سيرجع إلى الحياة الدنيا، ويقول: عجبت لمن يقول برجعة المسيح، ولا يقول برجعة محمد، ثم تدرج إلى

القول بألوهية عليٍّ رضي الله عنه فهمَّ علي بقتله، فنهاه عن ذلك عبدالله بن عباس رضي الله عنه فنفاه إلى المدائن، ولما استشهد علي، استغلَّ ابن سبأ ألمَ الناس لفقده، وعاد إلى أباطيله مدعيًا أن المقتول ليس عليًّا، إنَّما هو شيطان تصوَّر فى صورته إلى غير ذلك ثم على منهاج ابن سبأ تتابعت الحركات الباطنية، التي رأت أنَّ خير وسيلة للقضاء على الإسلام هي تشويهه في نفوس أتباعه، تحت ستار من المكر والدَّهاء وكان من هذه الحركات كذلك الراوندية التي نسبت إلى مدينة راوند، التي اتَّخذها أتباع الحركة مقرًّا لهم وبدأ أتباع الحركة أعمالَهم بالترويج للمُعتقدات الفارسية، وقد مكن الله عزَّ وجلَّ أبا جعفر المنصور أن يقضيَ عليهم.

ثم ظهرت الخرَّمية، وهي حركة أخذت اسمها من زوجة مزدك زعيم الإباحية القديم عند الفرس، واسمها خُرَّما واستطاع الخليفةُ المعتصم أن يقضيَ عليهم بعد قتل زعيمهم بابك الخرمي وكذلك ظهرت حركة الزنج ٢٥٦هـ، وحركة القرامطة ٢٧٧ هـ، وسار على نهج هذه الحركات إخوان الصفا، والإسماعيلية، تلك الحركات التي أرادت أن تقضيَ على مفهوم الإسلام الصحيح بدعوى أنَّ القرآن له ظاهر وباطن، ومُحاولة نشر عقائد المجوس والزرادشتية بين المسلمين؛ سعيًا لبث الفرقة بينهم، ومن ثم يتخلصون من الإسلام دون مُواجهة بالسلاح وبالرغم من خطورة هذه الحركات، إلا أن يقظة المجتمع الإسلامي حُكاماً ومحكومين

لم تُمكِّنها من الوصول إلى هدفها الخبيث وكما كان الحكام يواجهون أتباعها بالسَّيف، كان العلماء يواجهونهم فكريًّا، ويظهرون للمسلمين ضلالَهم وأهدافهم، ولعلَّ كتابَ الإمام الغزالي فضائح الباطنية كان حلقة من حلقات المواجهات الفكرية، التي أظهرت زيفَهم وخطورتهم على الإسلام والمسلمين.

ثانيًا: ترجمة كتب الفلسفة الإلهية عند اليونان:

من المعروف أنَّ السلفَ الصالح رضوان الله عليهم لما انفتحوا على حضارات ما قبل الإسلام، أخذوا منها النافع المفيد، وتركوا ما يتعلق بعقائدهم، ووثنياتهم، وفلسفاتهم الجدلية العقيمة، التي لا نفعَ يُرجى من ورائها لقد اجتهدوا في أخذ ما يتعلَّق بالعلوم المادية من طبٍّ، ورياضيات، وفلك، وكيمياء؛ وذلك سيرًا على منهج القرآن في الأمر بالنَّظر في الأشياء؛ {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} وظل الأمر على ذلك حتى أواخر العصر الأموي، وأوائل العصر العباسي، ثم بدأت تتوارد على العقل المسلم الفلسفة الهندية، واليونانية، ولما كان الكثير من الطوائف المجوسية واليهودية والنصرانية دخلت في الإسلام، وكان الكثير يتظاهر بالإسلام، ويبطن دينه، فقد بدأ هؤلاء ينشرون بين المسلمين ما يشككهم في عقائدهم،وكانت فرقة المعتزلة قد ظهرت، وبدأت تنهج النهج العقلاني في الردِّ على هذه الفرق، ومن ثم رأى

المعتزلة أنه لا بد من دراسة الفلسفة اليونانية؛ حتى يتمكنوا من الرد عليها، ولما طمَّ سيل الإلحاد والزندقة في العصر العباسي، ووجد الخلفاء العباسيون أثر المعتزلة في مُواجهة هذه الطوائف، وقوة تفنيدهم لحجج الزندقة، قاموا بتشجيعهم، ووصل الأمرُ بالمأمون أنه كان يعدُّ نفسه من علماء المعتزلة وكان ينهج نهجهم في هذا الاتِّجاه العقلاني، الذي جعلوا العقل فيه أساس بَحثهم، وحكموه في كل شيء، حتى أوَّلوا النص؛ كي يتَّفق مع العقل، بل يُمكننا أن نقول: لقد وصلوا إلى درجة تقديس العقل، ولا يستطيعُ أحد أن ينكر فضلَ المعتزلة في دفاعهم عن الإسلام، وتفنيدهم للأسس التي ترتكز عليها الفرق الضَّالة التي كانت تستتر في زيِّ الإسلام، وتُحاول أن تقوض بنيانه بتلك الفلسفات الملحدة لكنهم لم يلبثوا أن غَلُو في نظرتهم للعقل، وكان ذلك إيذانًا بتلاشيهم من ميدان البقاء وكان هذا الوضع من تدبير أعداء الإسلام، والدليل هذه الحادثة التي ذكرها العلاَّمة مُحب الدين الخطيب رحمه الله يقول: إنَّ قصة المسلمين مع الفلسفة اليُونانية قصة مَليئة بالفواجع والنَّكبات، والغريب جدًّا أنه لا يزال الكثير من مُثقفينا يعتقد أن سبب نهضة المسلمين يعود إلى هذه الفلسفة، مع أنَّها كانت من أعظم أسباب نزاعهم وبُعدهم عن دينهم،وقد تَحقَّق فيهم خبرُ أحد الأحبار، وتفصيل ذلك انَّ المأمون لما هادن بعضَ ملوك النصارى طلب منه خزانة كتب اليونان، وكانت عندهم مجموعة في بيتٍ لا يظهر عليه أحد، فجمع الملك خواصَّه من ذوي

الرأي، واستشارهم في ذلك، فكلهم أشاروا بعدم تجهيزها إليه إلا واحد، قال جهِّزها إليهم، فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلاَّ أفسدتها، وأوقعت بين علمائها وكّان أولئك النصارى قد طمروا هذه الفلسفة تحت الأرض تخلُّصًا من شرها؛ لما لمسوه من فسادها،وهدمها للدين والفضيلة فما كاد علماء المسلمين بعد أن بلغ مجد الإسلام ذِرْوَته في القوة والفتح والعلم يشتغلون بفلسفة اليونان،حتى راحوا يؤوِّلون نصوص الشريعة الإسلامية؛ حتى تتَّفق مع هذه الفلسفة، فمسخوا الإسلام، وأخذوا يزعمون أنَّ له ظاهرًا وباطنًا، ظاهره للعامة، وباطنه للعلماء والحكماء، وأخذوا يشتغلون بعلم الكلام يسمونه ظلماً علم التوحيد،ولا يكاد يكون فيه من التوحيد إلا الاسم، أما محتواه، فهو الفلسفة نفسه وكان لإعلاء المعتزلة شأن العقل، ورفعه إلى درجة التقديس؛ إيذانًا بخروجهم عن روح الهوية الإسلامية القائمة على السهولة واليُسر، والخالية من التعقيدات الفلسفية أعظمُ الأثر في مواجهة العلماء لهم، واجتهاد أئمة الإسلام أمثال مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم في الردِّ عليهم ومُواجهة تلك الفلسفات الدَّخيلة على هوية الأمة، والتي لم يألفها السَّلف الصالح رضوان الله عليهم يقول الشيخ محمد الغزَّالي - رحمه الله -: أين كانت الخلافة العبَّاسية أثناء الهجوم على الفكر الإسلامي بهذه الطَّريقة الوضيعة؟ لم تكن تكترث بالنَّتائج، وعندما تحركت الخلافة تَحرَّكت؛ لتنصر انحراف المعتزلة في

بعض قضايا الكلام، وأمرت بسجنِ وجلد ابن حنبل، الذي يُعَدُّ زعيمَ المحافظين في ذلك الوقت على أنَّ علماء الإسلام، ووراءهم السواد الأعظم من الأمة قاوَموا هذا الغشَّ المفروض على ثقافتهم الدينية مُقاومة ناضجة،وأمكن حصر الإسرائيليَّات، والنصرانيَّات، والإغريقيات، وكل القمامة الفكرية، التي أرادت الالتصاق بالرِّسالة الخاتمة، وتم تحذير الناس منها.

ثالثًا: الهجوم المسلح صليبي ووثني تتري:

تعرض العالَمُ الإسلاميُّ لعدة قرون مُتوالية لهجمة صليبيَّة وثنية شرسة، تدفقت إلى عالمنا الإسلامي مُتعاونة مُتعاضدة من عدَّة اتجاهات: من الشمال عن طريق بيزنطة، ومن الشرق بالغزو التَّتري المغولي، الذي تآمر مع الصَّليبيِّين لمدة ١٩٠ عاماً من سنة ٦١٦ - ٨٠٧ هـ، وكان أقواها حملة جنكيز خان، وهولاكو، وتيمورلنك، ومن الغرب عن طريق الأندلس بغزو الفرنجة والاسبان وكان الغرضُ الأساسيُّ لهذه الهجمة هو القضاء على والمحو التَّام لمعالم الإسلام، وتكشفت الأحداثُ والوقائع عن مدى ترصُّد ومراقبة القوى المعادية لأحوال العالم الإسلامي، حتَّى إذا تأكدوا من حدوث أمرين بدأوا في هجومهم:

الأول: ضعف الجبهة الداخليَّة وتفككها.

والثاني: وجود تناقُض بين قيم الإسلام وأعمال المسلمين وأخلاقهم؛ إذ أنَّ التوافق بين قيم الإسلام وأخلاق المسلمين من أقوى الدِّلالات على القوة المنبعثة من قوة العقيدة والإيمان نعم، إذا تَمزَّقت الوحدة، ووقع الصراع بين أجزاء العالم الإسلامي، ثم ضعفت القوة الرادعة كان ذلك مقدمة لتجمُّع الأعداء للانقضاض،لكن اللافت للنَّظر في تاريخنا الإسلامي تلك الظاهرة العجيبة ظاهرة الانبعاث الداخلي، سواء في مجال المواجهة المسلحة للغزو الخارجي، أم في مَجال الفكر لمواجهة الانحرافات الطارئة على الدين لم يقف عالم الإسلام صامتًا، ولم يستسلم، بل واجه العَدَاء بالمقاومة والوحدة والقتال،واستطاعَ أن يديلَ القوى الصَّليبية الشَّرسة، وأنْ يصهر القوى التَّترية المغولية في بوتقته، حتى أصبحت هذه القوى التي جاءت تريد القضاء على الإسلام من أقوى وأضخم القوى التي حملت راية الإسلام فيما بعد؛ حيث تحولوا إلى مسلمين مُخلصين وأصبح هذا الحدث الضَّخم هجوم التتار على بغداد أولاً، ثم إسلامهم وحملهم راية الإسلام ثانيًا من أقوى الأمثلة على قُدرة الهوية الإسلامية على إخضاع الهويات الأخرى وصهرها لها، حتى وإن كان المسلمون في حالة ضعف وانهزام ثم كان لظهور المماليك والعثمانيِّين، وحملهم راية الإسلام أعظمُ الأثر في كسر الغرور الصليبي ،وبالأخص بعد فتح القسطنطينيَّة على يد القائد الشاب محمد الفاتح، ولكن أنَّى للحقد الصليبي أن ينام أو يقر له قرار؟ تتابعت الحملات تريد القضاء على

الإسلام، إلاَّ أن الأعداء كانوا يدركون أنَّهم لن يبقوا في هذه البلاد أبدَ الدَّهر، مهما تغلَّبوا على أهلها المسلمين في فترات معينة،طالت أم قصرت لذا؛ فقد عملوا على تسليم مقاليد الحكم في هذه البلاد الإسلامية لشخصيات مُوالية لهم من أبناء هذه البلاد، تعمل بتوجيه الاحتلال على إخراج أجيال مفرَّغة من ثقافتها الإسلامية، ومن انتمائها إلى دينها وعقيدتها، ثم ما تلبث أن تتولى هذه النوعيات المفرَّغة مقاليد التوجيه الثَّقافي والصَّدارة الإعلامية، ومن ثم يتمكَّن الاحتلال من السيطرة على البلاد الإسلامية، وطمس معالم هويتها، فهم وإن كانوا قد رحلوا بأجسامهم وسلاحهم، فقد بقُوا بعقولهم وعملائهم وكانت هذه الخطة الخبيثة أقوى أثراً على الهوية الإسلامية من الهجمات الشرسة المدججة بالسلاح،إنَّها خطة الغزو الفكري، تلك المؤامرة الحديثة، التي وضعها الأعداء للقضاء على الهوية الإسلامية.

رابعًا:الغزو الفكري والتَّغريب ومُحاولات القضاء على الهوية الإسلامية:

كان فشل الصليبيِّين في الحملات التي شنُّوها على عالمنا الإسلامي سببًا في التفكير لتغيير أسلوب الغزو ووسائله؛ حيث أدرك الصليبيُّون أنَّ عقيدة المسلم ودينه يَحملانه على بذل النَّفس والنفيس في سبيل المحافظة على مُقدساته، وأرضه، وعرضه من الغازي المحتل.

وكانت بدايات التفكير في تغيير أسلوب الغزو حينما أسر قائد الحملة الصليبية لويس التاسع، وسجنه المصريون في المنصورة، واستطاعَ أن يفدي نفسه بمال كثير وحينما كان لويس هذا قابعًا بين جدران سِجْنه، أدرك أنَّ الغزوَ المسلح لن يستطيع الانتصار على المسلمين؛ لذلك فكَّر في طريقة أخرى خلاصتها إبعاد المسلم عن دينه، وتفريغه من عقيدته، بذلك يُمكن تحويل أحفاد الأسود إلى ظِبَاءٍ جَفُولَةٍ، لا تعتز بدينها ولا تحرص على حفظ عرضها ووطنها من الأعداء، بل إنَّهم يرون التمديُن والترقي في التشبه بغير المسلمين وحينما يُمكَّن لهذه الشخصيَّات من قيادة البلاد الإسلامية، فإنَّهم سوف ينوبون عن أعدائهم في القضاء على الهُوية الإسلامية، والقضاء على حملة الإسلام،تحت مُسمَّيات خادعة مثل: القضاء على الإرهاب، والتخلص من الرجعية، ومحاربة الجمود إلخ٠

حرص الأعداء على إرسال بعض الأفراد مستشرقين يدرسون الثَّقافة الإسلامية دراسة وافية،ثم يقومون بإثارة الشُّبهات ضدها، لكنَّهم وجدوا أنَّ الأُمَّة لا تثق فيما يصدر عنهم ولا تتأثَّر به، إذًا كان لا بد أمامهم من استقطاب بعض الأفراد من أبناء الأمة فهؤلاء لو تَمَّ استقطابهم، فسيكونون بمثابة الثقوب، التي يدخل منها الأعداء إلى ثقافة الأمة، كما تدخل الحشرات إلى جسم الشجرة الوارفة، وتظل تسعى حتى تصل إلى

النَّواة، فتفسد الشجرة كلها وكانت بدايات حصول الغرب على هذه الشخصيات التي أعدُّوها لتنفيذ الخطة:

لما بدأ الضعف يَدِبُّ في جسم الدولة العثمانية، التي ظلَّت تحمل راية الإسلام في وجه الأعداء عدة قرون، وبسبب البُعد عن تعاليم الإسلام، وعدم الأخذ بالأسباب في جوانب الحياة، والثِّقة الزائدة بالنفس، وعدم الاكتراث بالأعداء، وفي المقابل كان العدو المحيط بالدولة يتربَّص بها الدَّوائر بكلِّ جهده في إعداد نفسه؛ ليثأر لكرامته بعد تجرع كأس الذُّل بفتح القسطنطينية، وتحويل أكبر كنيسة بها إلى مسجد.

لما أحس بعضُ سلاطين آل عثمان بالخطر، وفي مُقدمتهم محمود الثاني،حاول أن ينهضَ بالدولة، وكان يوقن كما يقول باول شمتز أنَّ أوربا لا يُمكن أن تُضرَب وتُرَدُّ إلى ديارها إلاَّ بسلاح أوروبي، وبغير هذا لا يستطيع الشرق أن يقفَ أمامها ويوقف زحفها وبهذا بذل جهده، وحاول بكلِّ الوسائل أن يُحقق لبلده المستوى الحضاري الأوروبي؛ كي يستطيع مقابلة هذا الخطر الداهم، ويكون لديه إمكانية ردعه، والوقوف أمامه، وكان ينقص هذا دراسة أحوال وظروف الشَّعب الذي أريدَ رفعُ مستواه.

فلا جدالَ في حتمية وجود أرض خصبة لبذر هذه الحضارة، وإلاَّ يبست قبل أن تنبت، ويَعتريها الذبول إن نبتت بين شعبٍ لا يَملك مقومات رعاية

الحضارة، وليست لديه رغبة تقبلها؛ أي: لا بد من وجود عوامل تتناسَب مع إرادة التطوُّر، وتساعد على دفعها ورعايتها، فحياة شعوب الشرق اتَّسمت بالجمود، لا تعرف له بديلاً، ولم يكن من السهل إثناء الشَّعب عما اعتاده،أو تغيير هذه العادات، فمحمود الثاني حاول وضع الحضارة الأوروبية على أرز شرقي يبس وتحجَّر، وصار غير مستساغ وقام الحكام بعملين يتطلَّعون من ورائهما إلى النهوض بالأمة:

الأول: إرسال بعثات إلى الغرب:فقد حاول الحكام إرسال بعض الشخصيات؛كي تتزود بخبرة الغرب،وتأتي وهي مزودة بالعلم والحضارة ، ولكن هذه الشخصيَّات ذهبت وهي مفرغة من عقيدتها، فكان من السَّهل أن تتلقفهم المحافل الماسونية، ووقعوا فريسةً في أيدي أعداء الإسلام، وقاموا بإعدادهم؛ كي يقطع الشجرة أحد فروعها، وعادت هذه الشخصيات وهي مُتنكرة لا تحمل لأمتها انتماء.

والثاني: استقدام خبراء من الغرب: وبالنسبة للخبراء الذين قدموا من الغرب؛ كي يطوروا الدولة العثمانية جاؤوا بامتيازاتٍ تثبِّت أقدامهم؛ بحيث لم تستطع الدولة أن تتخلص منهم؛ يقول باول شمتز: إنَّ العقل الأوروبي الذي استعانت به تركيا ليساعدها على تنفيذ برامج الإصلاح؛ كي تستطيع الدِّفاع عن نفسها، وتتمكَّن من الوقوف ضِدَّ الهجوم عليها لا يستطيع أحد التخلص منه أبدًا، فقد أُعْطِيَ من الامتيازات، ونال من

الفرص ما يُمكِّنه من تثبيت أقدامه فوق هذه الأرض وحدث في كثير من البُلدان الإسلامية مثل ما حدث في تركيا، إلاَّ أن مصر لمكانتها الثَّقافية لاقت من عناية الأعداء وحرصِهم على السيطرة عليها بالأخص السيطرة الثقافية ما لم تلقَه دولة أخرى، وترتب على ذلك فقدان مصر سيادتها،وسقطت أمام البريطانيِّين عام ١٨٨٢م، ومنذ أن سيطر الخبراء الغربيُّون وتلاميذهم على مقاليدِ البلاد الإسلامية، حرصوا على إخراج أجيال لا تعرف دينَها، ولا تعتزُّ بالانتماء إلى عقيدتِها ولغتها ووطنها،ولا تعتز بتاريخها وتراثها، ولما كان للهُوية الإسلامية خمسة أركان، هي: الدين، اللغة، الأخلاق، التاريخ، التراث، فقد اجتهد الأعداء في السَّعي لطمس هذه الأركان؛ كي يطمسوا هوية الأمة بين الأمم.

أولاً: الهُويَّة الدينية ومحاولات طمس معالمها:

كان سعيُ الأعداء لطمس معالم هويتنا الدينية، ذات الصبغة المتميِّزة عن سائر الهويات في مخبرها ومظهرها، والتي تغرس في نفسِ المسلم روحَ الاعتزاز والتأبِّي على الظُّلم والاحتلال هو الهدفَ الأهم، والغرض الذي يرون في تحقيقه نيل مرادهم، وإطفاء غيظ صدورهم، ولكي يُحققوا هدفهم؛ كان عليهم أن يعدوا خطة ذات اتِّجاهات متعددة، إلاَّ أنَّها تسير في خطوات منسجمة مع بعضها البعض كان من أهمها:

أولاً: أن يسيطروا على التعليم، ويمكِّنوا عملاءهم من إدارته:

إذا كانت وقائع التاريخ قد لقّنت أعداءَ الأمة درسًا خلاصته أنَّ الأمة لن تركع لغازٍ مهما كانت قُوته، طالما كانت مُتمسكة بدينها؛ لذا فقد عملوا على تغيير أسلوبِ غزوهم، ووضعوا خُطة جديدة، تسعى هذه الخطة إلى ترويض أبناء الأمَّة على قبول الغزاة والمحاولات الضيِّقة لا تُجدي سريعًا مع المحتلين، إذًا كان لا بُدَّ أن يقوموا بعمليات واسعة النِّطاق،وهذه لا تتم إلاَّ بالسيطرة على التعليم، فمن خلال منهجٍ معدٍّ بإتقان من سن الطُّفولة إلى نهاية الجامعة، يتخرَّج حفيد أبطال الإسلام، من أمثال أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والقعقاع، وأبي عبيدة، وخالد وهو ظبي جفول وديع قد قلّمت هذه المناهج أظافره

هذا هدفهم، وتلك نتيجة خطتهم:تعليمُ اللَّيث الإسلامي جَفْلة الظبي، ومحو قصة أسْدِ الإسلام من العلماء والزُّهَّاد والمجاهدين من تاريخ القرون الفاضلة الأولى لهذه الأمة المجاهدة.

وأنتجت خطط التربية ذلك الظبي الجَفُول، الذي لم يَعد يقتحم، واستبدل التلفُّت بالعزم، وتعلم المسارعة إلى الهرب، إنَّهم هذا الجيل من أبناء المسلمين، شبل أسد تَحوَّل إلى ظبي وديع، وحر استرقوه ففرح إنه التخطيط الخبيث الساعي إلى قتل الرجولة، وحب التميُّز في أبناء الأمة، ويرحم الله الشاعر أكبر الإله أبادي حينما قال عن خطورة هذه المدارس والكليات والمناهج التي أعدَّها الأعداء لقتل رجولة أبناء الأمة يا لَبلادة

فرعون الذي لم يصلْ تفكيرُه إلى تأسيس الكليات، وقد كان ذلك أسهلَ طريق لقتل الأولاد، ولو فعل ذلك لم يلحقه العارُ وسوء الأحدوثة في التاريخ وحتى تسير الخطة في خطواتها المرسومة دون تعثُّر؛ لا بد من تمكين صنائع المستعمرين من دعاة التغريب من مراكز التوجيه الثَّقافي، وفي المقابل إبعاد كل مُستعصٍ على الترويض متنَزه عن العمالة، عن طريق الخطة، وتنحيته عن المراكز القيادية الثَّقافية، فإذا تمكن هؤلاء دعاة التغريب من كراسي التوجيه الثقافي،كان عليهم أن يقوموا بتدريس المنهج المعد المفرغ من مضامينه الإسلامية بإخلاصٍ وتفانٍ، بل بزيادة في الإخلاص، وردًّا لجميل أصحاب الفضل عليهم في وصولهم إلى هذه الكراسي، بالرَّغم من وجود الأجدر بها منهم، كان عليهم أن يقوموا بعملٍ آخر، وهو استقدام مستشرقين لتدريس بعض المواد التي تُمثل أخصَّ خصائص هُويتنا ، بالرغم من وجود الأكْفاء عندنا، ومن هذا القبيل استقدامَ طه حسين للمستشرق كازانوفا مدرس العلوم الشرقية بباريس؛ ليدرس مادة فقه اللغة العربية ولم يكتفِ طه حسين بذلك، بل َيقول عن كازانوفا هذا أريد أن يعلم الناس أنّي سمعت هذا الأستاذ كازانوفا يفسر القرآن الكريم تفسيرًا لغويًّا خالصًا، فتمنيت لو أتيح لمناهجه أنْ تتجاوز باب الرواق العباسي ولو خلسة؛ ليستطيع علماء الأزهر الشريف أنْ يدرسوا على طريقة جديدة نصوصَ القرآن الكريم من الوجهة اللغوية الخالصة على نحو مفيد حقًّا والسؤال الذي يتبادر إلى الذِّهن: كم يا ترى

كان يظهر عندنا كتابات في الشعر الجاهلي لو حدث ذلك؟ لا شكَّ أن الكثير من الكتابات التي كانت تظهر مُتطاولة على ثوابت الإسلام والهادمة لثقافة الأمة لو حدث ذلك ستكون أضعاف أضعاف عددها الكائن بالفعل وكان لمثل هذه الأعمال استقدام المستشرقين ليدرِّسوا ثقافتنا أعظم الأثر في نفوس النابهين والغيورين على هوية الأمة، وكان ذلك بالطبع يدفعهم إلى كشف زَيْف التغريبيين وفساد أعمالهم.

ومن هذا القبيل قولَ الشيخ محمود أبو العيون رحمه الله في مُواجهته ونقده لطه حسين في استقدام كازانوفا أشدّ ما أحسنت إلينا أيها الأستاذ بهذا الاستكشاف الحديث، حقًّا إننا في حاجة إلى مثل هذا العالم اللغوي الأعجمي الجليل؛ ليدرس لنا كتاب الله وسنة رسوله ص وفي حاجة ماسَّة إليه لتدريس الشريعة الغرَّاء وأصولها المستنبطة من الكتاب والسنة، وفي حاجةٍ أمسَّ إلى مثله يُعلمنا البلاغة؛ لأنه يعرف لغة القرآن وأسرارَ النزول، أين نحن يا ترى؟ وفي أيِّ عالم نعيش؟ لا شَكَّ أننا في عالَم وهمٍ وخيالٍ، لقد سُلِبنا العقولَ، وحجبنا عن الإدراك، وعمينا عن الحقائق، وأصبحَ الأعجمي بدويًّا قحًّا يعلم كتابَ الله كما أنزل، وأصبح العربي أعجميًّا لا يعرف من لغة العرب شيئًا، والأمر يومئذ لله.

ولا شكَّ أنَّ أمثال كازانوفا حينما تتاح لهم الفُرصة؛ ليدرسوا للأجيال المسلمة الناشئة،فلن يترك الفُرصة تَمر دون أن يشوه عندهم الإسلام:

عقيدة، وشريعة، ولغة، وتاريخًا، بل إن أول ما سيقومون به هو تجهيل العلم، وربطه بالإلحاد والكفر بالله سبحانه وتعالى على خلاف ما هو متعارَف عليه في الإسلام، بل إنَّ عملهم ولا يزال عملاً شموليًّا يسعى لهدم التعليمي من جميع أركانه،من خلال وضع الكثير من العوائق والتحديات في طريقها، ومن أهمها:

محاولات هدم أركان عملية التعليم:سعى أعداء الإسلام لهدم أركان العملية التعليمية في بلاد الإسلام، وقد اتَّخذوا لذلك عدة خطوات، من أهمها:

أولاً: السعي لهدم المنهج الدراسي وتفريغه من مضامينه الإسلامية:

اتَّخذ الأعداء عدة وسائل لتفريغ المنهج الدراسي من مضامينه وقيمه الإسلامية، وكان من أهم هذه الوسائل:

أولاً: تجهيل العلم بإبعاده عن الله أو تلحيده بمعنى أصح وكانت هذه الخُطوة من الأساسيات التي سعى أعداءُ الإسلام لتحقيقها في عالمنا الإسلامي، كما حقَّقوه في بلادهم فالمعروف أنَّه منذ بعث الله رسوله محمدًا ص والعلم في الإسلام يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالإيمان والعقيدة والأخلاق، وفي عالمنا الإسلامي لا تعرفُ الأمة في ظل الإسلام ذلك الخصام الذي وقع بين رجال الدِّين وعلماء الكونيَّات في الغرب، فعالم

الدين عندنا هو عالم فلك ورياضيَّات وطب وغير ذلك ولا شك أنَّ هذا الارتباط بين الدين والعلم هو عاملُ دفع للأمام وتوافُق وانسجام في شخصية المسلم؛ إذ عدم الارتباط بين الدِّين والعلم يُحدث في نفس الإنسان ما يشبه الانفصام بين عقيدته وأبحاثه، ومثل هذا لا يرجَى منه عمل نافع ومن هنا بدأ الأعداء يَفصلون العلومَ والمناهج عن الدِّين، حتى وصل الأمر ببعض العملاء أن جعل دراسة اللغة من أجل الدين سببًا من أسباب ابتذالها وبدأت نظريَّات الإلحاد تتطرق إلى المناهج الدراسيَّة، وكان من هذا القبيل: تدريس نظرية دارون القائلة بتسلسُل الإنسان في نشأته من كائنات دُنيا حتى صار قردًا، ثم بالارتقاء مع الزمن وصل إلى إنسان، والعجيب أنْ تُدرَّس هذه الخرافات المضادة للدِّين، وهي مغلفة بستار زائف من البحث العلمي.

فهل إذا درس التلميذ هذه النظرية تحت اسم البحث العلمي، هل تظل عقليته راسخة؟ أم أنَّه يبدأ في الشك في صحة النُّصوص الدينية؟ وهذا ما حدث بالفعل مع بعض الذين قرأوا كتاب دارون، وكتابات شبلي شميل، وسلامة موسى، ويَعقوب صروف، مِمَّن اعتنقوا مذهبَ دارون ودعوا إليه، ولعلَّ الأستاذ إسماعيل مظهر كان أحدَ هؤلاء الذين قرأوا فوقعوا في الشك والاضطراب، حتى يقول عن قراءته لكتاب شبلي شميل فلسفة النشوء والارتقاء: فأحدثت قراءتها في ذهني من الانقلاب ما يعجز قلمي عن التعبير عنه أو وصفه، ثم يلخص نتيجة خَوضه في بحر الأفكار

المادية قائلاً:على أنّي إن خرجت من كل ما قرأت، واستجمعت من الآراء والنظريَّات فكرة يصح أنْ يقال فيها: إنَّها الفكرة المسلطة الآن على مشاعري ، فهي فكرة تتراوح بين الشك واليقين وكذلك الذي يقرأ في مذكرات الأستاذ محمد لطفي جمعة، وكيف تأثر بكتابات دارون، وشبلي شميل، ويعقوب صروف يدرك مدى هذا التأثُّر في سن الصبا، ولعلَّ هذا التأثر هو الذي كان يدفعه لمحاولات الجمع بين مذهب دارون ونصوص الدين بالرغم من عدم إمكانية الجمع في قضية خلق الإنسان وهذا أيضًا الدكتور مصطفى محمود، يتحدَّث عن نفسه في سِنِّ الصِّبا، فيقول: وغرقتُ في مكتبة البلدية بطنطا وأنا صبيّ، أقرأ لشبلي شميل، وسلامة موسى، وأتعرَّف على فرويد، ودارون، ثم كان ما كان من تأثُّره بالفِكرة المادية: لنرفضَ الغيبيات، ولنكفَّ عن إطلاق البخور، وترديد الخرافات،مَن يعطينا دبَّاباتٍ وطائرات، ويأخذ منا الأديانَ والعبادات؟ وهؤلاء الأساتذة الثلاثة إسماعيل مظهر، ومحمد لطفي جمعة، ومصطفى محمود قد منَّ الله عليهم بالانخراط في تيَّار الأصالة، والدِّفاع عن ثوابت الأمَّة بعد ذلك،وإن كنا قد ذكرْنا بعضَ كتاباتهم المبكِّرة، فما ذلك إلا لأنَّها تمثل طورًا فكريًّا مرُّوا به هم، وغيرهم من الشباب الذين حاولوا التعمُّق في الفِكر المادي، وقرأوا لدعاته.

وأليس من قبيل تجهيل العلم، وتشكيك الناشئة في مُسلَّمات دينهم أن يكتب طه حسين كتابه في الشعر الجاهلي، ويُدرِّسه للطلبة، وينكر فيه

وجودَ سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام مغلّفًا هذا الفكر في ثوب الاعتماد على ما أثبتَه البحث الحديث على حدِّ زعمه في وجود خلاف جوهري بيْن لُغة العدنانيِّين والقحطانيِّين، فيقول: فواضحٌ جدًّا لكلِّ مَن له إلمام بالبحث التاريخي عامَّة، وبدرس الأساطير والأقاصيص خاصَّة: أنَّ هذه النظرية مُتكلَّفة مصطنعة في عصور متأخِّرة، دعتْ إليها حاجة دينيَّة، أو اقتصادية أو سياسية، للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يُحدِّثنا عنهما أيضاً، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يَكْفي لإثبات وجودهما التاريخي؟.

فإذا دَرَّسَ الأستاذ هذا الفكر، وغلَّفه بغلاف البحث العلمي، ألاَ يَفتح المجال أمامَ الطلبة أن يُعمِّموا هذا الضلال، لا على قصَّة واحدة من قصص القرآن، بل على كلِّ القصص القرآني؟ وهذا ما حَدَث بالفعل، وهذا ما قام به الطالِب محمد أحمد خلف الله في رسالته للدكتوراه، والمسماة الفن القصصي في القرآن الكريم، حيث ذهب إلى أنَّ ما بالقصص القرآني من مسائلَ تاريخية ليستْ إلا للصور الذهنية لِمَا يعرفه المعاصرون للنبي عليه السلام عن التاريخ، وما يعرفه هؤلاء لا يلزم أن يكون هو الحقَّ والواقع، كما لا يلزم القرآن أن يردَّها إلى الحقِّ والواقع؛ لأنَّ القرآن كان يجيء في بيانه المعجِز على ما يعتقد العربُ، وتعتقد البيئة، ويعتقد المخاطَبون، ومعنى هذا: أنَّ القصص القرآني ليس من قبيل الحقائق التاريخيَّة، وإنما هو ترديدٌ للقصص المتعارَف عليها بين أهل الجاهلية،

وإن كانتْ هذه القصص خرافات، فقد قرَّر القرآن هذه الخُرافات ومِن عجيب ما يُذكر: أنَّ الدكتور المشرف على هذه الرسالة الدكتور أمين الخولي دافع عن فكرة الرِّسالة الضالة دفاعًا شديدًا، حتى قال: إنها لحقّ، ألْقوا بي في النار، ولَمَّا أصرَّتِ اللجنة المناقشةُ رفْضَ الرسالة؛ لِمَا فيها من تكذيب لصدق القصص القرآني للواقع التاريخي، انتقدها الكاتبُ توفيق الحكيم نعم، فهؤلاء رُوَّاد التنوير عندنا ولم يكتفِ بالنقد، بل لقد استعْدَى على الأساتذة المناقِشين رئيسَ الوزراء في ذلك الوقت قائلاً له: فالأمر خطيرٌ يا رئيس الحكومة، إلى حدٍّ أطالبك معه بواحد من أمرين، لا ثالث لهما: إما أن تدرأ في الحال الخطر المحيق بهذه المناورة الفكرية والرُّوحيَّةوإمَّا أن تستقيل فانظر كيف لا يتوقَّف الأمرُ على ترويج الضلال، بل إنَّه يمتد لحالة الإرهاب الفِكري لكلِّ مَن يواجهه، فإذا كانتْ هذه هي الثقافة التي تبثُّها المدارس والجامعات في نفوس الطلاَّب، فهل يبقى للهُويَّة الإسلامية أثرٌ يُذكَر في نفوس الأجيال المُقبلة؟.

إن أبْسط وصْفٍ للهيئة التعليمية التي تتبنَّى نشْرَ هذه المناهج: أنَّها هيئة خائنة للأمَّة في أثمنِ ما تملك من كنوز، وأعزِّ ما تملك من ثروة؛ لأنَّ كنوز الأرض لا تساوي شيئًا بدونها، إنها الثروة البشرية بما تنطوي عليه مِن قُوى مادية، ومِن مَلَكاتٍ عقليَّة وخلقيَّة هذه النظرة العميقة للمؤسَّسة التعليمية وللمدرسة بصفة خاصَّة هي التي ينطلق من خلالها الكيانُ الصِّهْيَونيُّ في إنشائهم لأجيالهم.

يقول اليهودي ساشر: إنَّنا لا ننظر في إيجاد مدرسة في فلسطين كمجرَّد وسيلة لتعليم عدد من الطلاَّب اليهود هناك، بل أبعد مِن ذلك، إنها رمزُ المهمة العظيمة الملقاة على عاتقنا في تربية ذاتنا إنها رمزٌ لإعادة بناء أجيالنا بناءً قوميًّا، ووعْد بالاستمرار القومي في المستقبل وقال جاكوب كلاتزمان: تؤلّف دباباتُ سنتوريون عاملاً من عوامِل الأمن والسلامة على المدى القريب، ولكنَّ المدرسة والجامعة هي العوامل الأكثر أهميَّةً بالنِّسبة للمستقبل البعيد هذه نظرة أعدائنا إلى المدرسة والجامعة، وهذه نظرةُ القائمين عليها في بلادنا،ومِن ثَمَّ كان للقِسِّ زويمر أن يفخر قائلاً: لقد قضيْنا على برامج التعليم في الأقطار الإسلامية منذ خمسين عاماً، فأخرجْنا منها القرآن، وتاريخ الإسلام،ومِن ثَمَّ أخرجْنا شباب المسلمين من الوسائط التي تخلق فيهم العقيدة والوطنية،والإخلاص والرجولة، والدِّفاع عن الحق، والواقع أن القضاء على الإسلام في مدارس المسلمين أكبرُ واسطة للتنصير، وقد جِئْنا بأعظمِ الثمرات المرجُوة منه وإذا كانتْ هذه هي الحالة الفِكرية التي وصل إليها بعضُ الطلاَّب الذين يتلقَّوْن العلم من خلال المناهج الدراسية في أقطارنا الإسلامية فما بالنا بمَن يذهبون إلى الغرب بعد أن يرضون عنهم، ويأخذونهم في بعثات دراسيَّة في بلادهم؟ وما هو يا ترى الإعدادُ الذي يعدُّه الغرب لهم،والمناهج التي تُدرَّس لهم، والدور الذي يُطلَب منهم بعدَ ذلك؟.

جاء في كتاب المشكلة الشرقية لا شكَّ أنَّ المنصِّرين فيما يتعلق بتخريب وتشويه عقيدة المسلمين قد فشِلوا تماماً، لكن هذه الغاية يمكن الوصولُ إليها من خلال الجامعات الغربية، فيجب أن تَختارَ طلبةً من ذوي الطبائع الضعيفة، والشخصية الممزَّقة، والسلوك المنحلِّ من الشرق، ولا سيَّما من البلاد الإسلامية،وتمنحهم مِنحَ دراسية، حتى تبيعَ لهم الشهادات بأيِّ سعر؛ ليكونوا المبشِّرين المجهولين لنا، لتأسيس السلوك الاجتماعي والسياسي، الذي نصْبوا إليه في البلاد الإسلاميَّة.

إنَّ اعتقادي لقويٌّ بأنَّ الجامعاتِ الغربية يجب أن تَستغلَّ استغلالاً تامًّا جنونَ الشرقيِّين للحصول على الدرجات العِلمية والشهادات، واستعمال أمثال هؤلاء الطلبة كمبشِّرين ووُعَّاظ ومدرِّسين لأهدافنا ومآربنا باسم تهذيب المسلمين والإسلام فهذا هدفٌ يسعَوْن إليه، وهناك هدفٌ آخرُ أوْجزه اللورد كرومر مِن هؤلاء المبعوثين عندما قال إنَّ الشباب الذين يتلقَّوْن علومَهم في إنجلترا وأوربا يَفقِدون صلتَهم الثقافية والرُّوحيَّة بوطنهم،ولا يستطيعون الانتماءَ في نفس الوقت إلى البلد الذي منَحَهم ثقافته، فيتأرجحون في الوسط، ويتحوَّلون إلى مخلوقات شاذَّة ممزَّقة نفسيًّا وهل هناك خيرٌ يرجى للأمَّة من وراء إنسان أصبح ممزَّقًا نفسيًّا؟ بل أوليستْ هذه كذلك أعظمَ خسارة تخسرها الأمَّة، حينما يتحوَّل أبناؤها إلى هذه الحالة؟.

ثانيًا: غرْس ثقافة الاستسلام من خلال المنهج الدراسي:

كان للسيطرة والهيمنة الأمريكيَّة على دول العالَم الإسلامي خاصَّةً الدولَ العربية أعظمُ الأثر في تفريغ المناهج الدراسيَّة مِن كل ما يَغْرس في نفوس الناشئة الرجولةَ وحبَّ الجهاد، وحبَّ الدِّفاع عن الأوطان، ووضعوا مكانَ ذلك ما يغرس في نفوس الشباب الخنوعَ والاستسلام، تحت مسميات كاذبة، مثل السلام والأخوة بين البشر، والمحبة بيْن الناس، وغير ذلك وقد مهَّدَتْ لذلك في مصر هيئةُ المعونة، عندما أنشأتْ شُعبة تطوير المناهِج والبرامج التعليمية عام ١٩٨٧،ومعظم خُبرائها من الأمريكان، ويحصلون على ٧٠ ٪ من أموال المعونة، وقد قامتْ هذه الهيئة بحذف ٣٠ ٪ من المناهج تحت مسمَّى حذْف الحشو؛ مما أدَّى إلى غياب الفِكر والمادة العِلميَّة من المنهج وبداية من أغسطس عام ١٩٩٢، تم تطوير ٥٧ كتابًا بمختلف مراحل التعليم، خاصَّة مواد اللُّغة العربية، والتربية الدينية، حيث شَهِد كتاب التربية الدينية للصف الخامس تشويهاتٍ شديدةً أدَّت إلى ثورة في الأزهر، ومركز البحوث التربوية وتولَّى مرْكز تطوير المناهج برئاسة كوثر كوجك استكمالَ لعبة التغيير في المناهج، حيث كشف تقريرٌ سِريٌّ للمركز عن قيام فريق أمريكي برئاسة يرالد تيرث،وعضوية دبيتر نومان دوجوان بمراجعة ووضْع ٧٠ كتابًا في مختلف الفِرق الدراسية في التعليم العام، كما وضعوا دليلاً لإعداد المناهج والموادِّ التعليمية، أسموه مصفوفة المدى والتتابع، وظلَّ

هذا المركز يَعقد حلقاتٍ نقاش مع الخبراء الأمريكان، ومؤلِّفي الكتب المدرسيَّة؛ لتحديد التعديلات الجديدة المصبوغة بالصِّبغة الأمريكية وعام ١٩٩٦ ظهرتِ التغييرات بشكل عملي في جميع المناهِج، ولجميع سنوات التعليم الأساسي، حيث تمَّ خفضُ حجم المناهج، مع تضمين جميع الكتب للمفاهيم والقضايا والتوجُّهات التي تريدها أمريكا، بل وسارتِ المناهج في اتجاه التطبيع مع إسرائيل، حيث الدعوةُ للسلام، والتربية من أجل السلام، والتآخِي والتسامح بين الشعوب وكشفتْ دراسةُ الدكتور علي الجمل أستاذ تدريس المناهج بتربية عين شمس عن أنَّه منذ اتَّجهت الدول العربية إلى السلام مع إسرائيل خاصَّة مصر بدأتْ مناهجُ التاريخ تخدُم هذه الفِكرة، وترتَّب عليه تغيُّرٌ في المناهج الدراسية، واختفى منها كلُّ ما يحضُّ على الجهاد والتضحية باعتبارها مصدرًا للعنف والتطرُّف، وبث كلِّ معاني الحبِّ بهدف إعداد جيل مسالِم يدعو للحبِّ والسلام، ولا يعرف شيئًا عن عدوِّه، ومِنْ ثَمَّ غابتْ عن مناهج التاريخ الكثيرُ من المبادئ والمواقف والأحداث، التي تستطيع الإسهامَ في إعداد المواطِن ذي الوعي المستنير،القادر على الدِّفاع عن وطنه وقتَ الحرْب، وتنميته وقت السلم وتقول الدراسة: إنَّ السؤال الذي يطرح نفسَه هو: هل سنظلُّ نغرس في نفوس أبنائنا السلامَ فقط، ونهمل إعدادَهم على التضحية والفِداء، والدِّفاع عن الأرض والوطن الذي يُنتهَك في كلِّ شبر من أرض الإسلام؟ ويتساءل متعجِّبًا في دراسته: كيف نربِّي

أبناءنا على السلام فقط، ويربِّي أعداؤُنا أبناءَهم على قتْلنا، وسَفْك دمائنا؟ فلو نظرْنا إلى النظام التربوي الإسرائيلي نَجِد ظاهرةَ التعصُّب الصِّهْيوني واضحةً في مناهجهم، وأنَّ التوجُّه العنصري ضدَّ العرب واضحٌ في تلك المناهج، فتعرِض العربيَّ على أنه متخلِّف في مقابل اليهودي المتقدِّم ويقول الأستاذ علي الجمل في دراسته: إنَّ الموضوعاتِ التي تعرضها مناهج التربية والتعليم في إسرائيل ليستْ نكتة أو فكاهة، بل حقيقة تربوية أدَّتْ إلى مجازرَ عسكرية، ومطاحنَ بشرية، يتربَّى بنو إسرائيل على إدارتها وإشاعتها، ومنها مسألة حسابية، تقول: هناك ١٠٠ عربي قتلْنا منهم ٣٠، فكم الباقي الذي يلزمنا قتلُه؟ ونحن ما زالتْ مناهجنا لا تعرف غير: الأُخوة بين البشر، السلام العالمي، المساواة، وغير ذلك من الركائز التي يدعمون من خلالها ثقافة الاستسلام،وقلْم الأظافر، والترويض والتدجين للأجيال المسلِمة.

ثالثاً: تحديات تواجه التلميذ:

التلميذ هو الهدف والغاية من وراءِ العملية التعليمية؛ لذا فقد وضعتِ التدابير المُحكَمة كي يتحوَّل إلى نموذج مهزوز، مفرَّغ من القيم الإسلامية والرجولة، بل وجَعْله يرى كلَّ غربي على أنه مظهر الحضارة، والنموذج الذي ينبغي أن يُحتذَى وفي المقابل ينظر إلى كلِّ إسلامي على أنَّه مظهرُ التخلُّف والجمود، أوَليستْ هذه النتيجة التي ذكَرَها اللورد

كرومر حينما قال عن الشباب الذين تثقَّفوا على يدِ الغربيين يتأرجحون في الوسط، ويتحوَّلون إلى مخلوقات شاذَّة ممزَّقة نفسيًّا؟ وهي النتيجة التي ذكرها على سبيل الافتخار بإنجازهم القِسُّ زويمر حين قال: لقد قضيْنا على برامج التعليم في الأقطار الإسلامية منذ خمسين عامًا، فأخرجنا منها القرآن وتاريخ الإسلام، ومن ثَمَّ أخرجْنا شباب المسلمين من الوسائط التي تخلُق فيهم العقيدةَ والوطنية، والإخلاص والرجولة، والدِّفاع عن الحق والواقع: أنَّ المؤامرة على التلميذ في العملية التعليمية قد امتدتْ لتشمل أولاً: قتْل مواهب الإبداع لدى التلميذ وفي سبيل تحقيق ذلك عَمَد الأعداءُ وعملاؤهم إلى تنحية كلِّ ما مِن شأنه أن ينمِّي مواهبَ التلميذ،ويغرس في نفسه حبَّ إعادة أمجاد أجداده المسلمين.

يتحدَّث الأستاذ فهمي هويدي عن نموذج في هذا الصَّدد في إحدى الدول العربية، تمَّ فيه حذْف عِدَّة دروس كانت مقرَّرة على التلاميذ، يقول: أثار انتباهي بشدَّة مضمونُ تلك الدروس المحذوفة، فأحدها تحدَّث عن القعقاع بن عمرو التميمي، الذي اشتهر بالجِهاد والقوَّة، وكان إضافةً مهمَّة لقوَّة ونصْر أي جيش ينخرط فيه ودرس آخَرُ عنوانه حاجة الشرق إلى التربية الحربية تحدَّث عن أهمية التسليح كي لا نكونَ نهبًا للظالم،وفريسةً للمعتدي،وأشار إلى أنَّ التربية الحربية التي يجب الالْتزام بها في الشرق ينبغي أن تكونَ على أحدث نهْج، وأفضل نُظم الحرب؛ لأنَّ

القُنبلة لا تُواجَه بالسيف وهناك درس آخر بعنوان على غار حراء تحدَّث الدرس عن الإسلام دِين العلم، وفيه ردٌّ على الذين ادَّعَوْا أنَّ رسالة الإسلام هي شِرعة السيف وحْدَه .

ومن المحذوفات أيضًا: وصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص، حين أمَّرَه على الجيش المتجه إلى العراق، ومما ورد في الكتاب قولُ عمر: ولا تؤت بأسير ليس له عَقْد أو عهد إلاَّ ضربت عنقه لتُرهبَ به عدوَّ الله ومن المحذوفات كذلك درسان يتحدَّثان عن علوم العَرَب،وأثرها في نهضة أوربا، ودرس آخر موضوعه: الموسوعات العربية في العصر المملوكي، ودراسة في كتاب صبح الأعشى، وقد تضمن استعراضاً للفساد، وتدهور القيم الأدبية، وأشار أنه بفساد السلطة ينتشر الجهل، وتنهار الأمم، كما تحدَّث عن نِفاق البعض الذي يؤدِّي إلى تصويب الخطأ الذي يرتكبه رؤساءُ القوم، وتحسين القبيح وبعدَ أن استعرض الأستاذ فهمي هويدي الموضوعاتِ المحذوفة، قال إذا صحَّ أن النصوص المحذوفة بالمضمون الذي سبق ذِكْرُه وأغلب الظنِّ أنه صحيح فإنَّنا نكون بصدد نموذج استبعدتْ منه قيمة الشجاعة والبطولة في درس القعقاع،قيمة الإعداد تحسبًا لاحتمالات العدوان، وضرورة توفير القُدرة العسكرية للأمَّة في درس حاجة الشرق إلى التربية الحربية، أهمية التعلُّق بالعِلم والتمكُّن من السلاح للتغلُّب على الذين يُعطِّلون سعينا إلى السلام، مع احترام أصحاب العَهْد في درس غار

حراء، والاعتزاز بما حقَّقه العرب من نهضة في الماضي واستفاقتهم في الحاضر، والتنبيه إلى أنَّ مِن شأن فساد السلطة انتشارَ الجهل، وانهيارَ الأمم، مع التحذير من النِّفاق في الحياة العامة في الدرس الأخير المتعلِّق بالموسوعات العربية حين يُدقِّق المرء في مضمون تلك النصوص، والمعاني والقِيم التي تبثُّها في مدارك الطلاب والطالبات، يلاحظ أنَّ الذي حُذِف هو بالضبط ما يُرجَى من العملية التعليمية أن توصلَه، أو تزرعه في نفوس الأجيال الجديدة ولا نعرف المعاييرَ التي على أساسها تَمَّ الحذْفُ، كما أننا لا نستطيع أن نُعمِّم تلك المعايير، أو نفترض ما حَدَث في هذه الدولة العربية تَكرَّر بنفس الأسلوب في بقية الدول العربية، مع ذلك فبوسعنا أن نُقرِّر أمرين:

أولهما: أنَّ النموذج الذي بين أيدينا يذهب إلى أبعدَ بكثير مِن تجفيف منابع التطرُّف، أو مكافحة الإرهاب، بل هو أقربُ إلى تجفيف الشخصية نفسِها، وتحويلها إلى نموذج باهِت، مهزوز القِيَم، عاجز عن أن يكون غيورًا على أمَّته، أو إيجابيًّا في مواقفه، أو حتى معتزًّا بهُويته.

أما الأمر الثاني: فهو أنَّ عملية مراجعة المناهِج الدراسية شملتْ جميعَ الدول العربية،وأنها كانت أحدَ المطالب التي ضغطتْ لتحقيقها الإدارةُ الأمريكية عقب أحداث ١١ سبتمبر في إطار ما سُمِّي حرْبَ الأفكار، التي استهدفتْ تغيير المدارك والعقول؛ لكي تصبحَ أكثر استعدادًا للتكيُّف مع

أوضاع الهيمنة الأمريكيَّة والإسرائيلية على المنطقة فانظر كيف يجتهدون في حذْف كلِّ ما مِن شأنه أن يُخرج مسلمًا مثقَّفًا، مستنيرًا واعيًا، قادرًا على العطاء، معتزًّا بتاريخه، معتزًّا بهُويته.

ثانيًا: غرْس قيم الفكر الغربي في نفوس التلاميذ:لم يَكتفِ الأعداءُ وعملاؤهم بعملية مسْخ المناهج، ولا بتجفيف مواهبِ التلميذ الذاتية بدل تنميتها بل سَعَوْا إلى غرْس قِيم الفكر الغربي في نفوس التلاميذ منذ سِنٍّ مبكِّرة وكلَّ هذه الخُطوات هي ما أطلق عليها علماؤنا سياسة التفريغ والملء، فهم يُفرِّغون عقل التلميذ من قيمه الإسلامية، حتى إذا أصبح هذا العقل صفحةً بيضاء، قاموا بتلقيحه بقِيَم الفكر الغربي وانظر إلى هذه الخُطوة تقول جريدة آفاق عربية: أكَّدتْ مصادرُ بوزارة التربية والتعليم بمصر أنَّ الوزارة ستعقد اتفاقيةً مع الوكالة الأمريكية للتنمية، سيتمُّ بموجبها تعميمُ مشروع أمريكي جديد تحت عنوان مكتبتي العربية، حيث سيتمُّ توزيع كتب ذات طباعة فاخِرة ملونة، مترجمة عن كتب أمريكية تتبنَّى قِيَمًا غربية؛ لترويجها بين تلاميذ الصفَّيْن الثالث والرابع بالمرحلة الابتدائية، وتناقش الكتبُ الموضوعاتِ الجنسيَّة وهذا المشروع لم يقتصرْ على مصر،بل سيُعمَّم على كل الدول العربية، ويستهدف ثلاثة آلاف مدرسة عربية،وسيتمُّ من خلاله توزيعُ مليون كتاب على ١٢٠ ألف طالب وطالبة بالمرحلة الابتدائية، و٦ آلاف معلّم ومعلّمة.

وبالإضافة إلى ذلك، ولتتم عملية غسيل المخ، أوملء الفراغ على خير وجهٍ؛قاموا بتلك الخُطوة التي تَرْمِي إلى رصْد مائة مليون جنيه بالتنسيق مع الجامعة الأمريكية ووزارة التعاون الدولي؛ لتنفيذ برنامج لإعداد وتنمية القادة من خِرِّيجي المدارس المصرية، ويستوعب هذا البرنامج ١٦٢ طالبًا وطالبة؛للحصول على شهادة البكالوريوس في خلال ثلاث سنوات، واشترط على المرشحين أن يكونوا من الحاصلين على ٨٥ ٪ على الأقل في الثانوية العامة،ودرجات عالية في اللغة الإنجليزية، وسيُلحق المتميِّزُون بعد البكالوريوس بالجامعات الأمريكية، وسيتمُّ إلحاق قادة المستقبل هؤلاء بالولايات المتحدة لفَصْل دراسي كامل وانظر إلى خطورة هذه الخُطوة على عقول أبناء المسلمين وهُويَّتهم الإسلامية، التي حذَّر منها أهلُ الغَيْرة على ثقافة الأمَّة وقيمها، وكان من بينهم الأستاذ علي لبن أحد نوَّاب الكتلة البرلمانية لجماعة الإخوان المسلمين بمجلس الشعب المصري الذي تقدَّم بطلب إحاطة إلى رئيس مجلس الوزراء، ووزير التربية والتعليم: يقول: إنَّ إدارة العلاقات الثقافية الخارجية بوزارة التربية والتعليم أرسلتْ خطاباتٍ إلى جميع مديريات التربية والتعليم بمحافظات مصر،تطلب فيها من جميع المدارس الإعدادية والثانوية ترشيحَ عدد ٣٠ طالبًا وطالبة من المتفوِّقين، ممن تتراوح أعمارُهم ما بين سن ١٥ و١٨ سنة للسَّفَر والإقامة المجانية بالولايات المتحدة الأمريكية؛ لمعايشة بعضِ الأُسَر هناك لمدَّة لا تقلُّ عن

عام وكشف الأستاذ علي لبن عن أنَّ هذه المِنحة المجانية تقف وراءَها منظَّمة عالمية، مقرُّها نيويورك تُسمَّى الشبكة العالمية للتربية والمصادر ، وأنَّ مؤسسها يُدعَى بيتر كوين، وهو يهودي الأصل، ودخلتْ مصر عن طريق التعاقد مع وزارة التربية والتعليم عام ١٩٩٩م،وتضمُّ في عضويتها اثنين من السِّفارة الأمريكية بالقاهرة ومن أهداف الشبكة غرْسَ ما يُسمَّى بقِيم التسامح والإخاء العالمي بغَضِّ النظر عن الدِّين والجنس، واعتقاد أنَّ العالم كله أسرة واحدة كبيرة، لا يمكن أن تتجزأ، وهي نفس أهداف الماسونية العالمية التي تتعارض مع ثوابتِنا الإسلامية الصحيحة، فضلاً عن سعيها إلى طَمْس هُويتنا، ومَحْو خصوصيتنا الدِّينيَّة والثقافية أرأيتَ ما يُعدُّ لأبنائنا التلاميذ؟ أترى أنَّ هؤلاء يعودون وهم يعتزُّون بدِينهم ووطنهم وثقافتهم؟أم أنهم يعودون لا يُمجِّدون ولا يعرفون سوى الغَرْب وثقافة الغرب، والخضوع للغرب؟ بل إنهم بعد أن يُصبحوا قادةً للمجتمع يقومون بكَبْت كلِّ صوت،أو فكر يُخالِف أهدافَ الغرب وأغراضه نعم، إنها النتيجةُ الحتمية التي تنتجها التربيةُ الغربية إلا ما رحم ربُّك وانظر إلى هذه الإجابة مِن جان بول سارتر عن سؤال وُجِّه إليه، وهو: كيف يظهر المفكِّر في الشرق الإسلامي؟٠

فأجاب: كنَّا نحضِّر أبناء رؤساء القبائل وأبناء الأشراف والأثرياء والسادة مِن أفريقيا وآسيا، ونطوف بهم بضعة أيام في لندن وباريس وأمستردام، فتتغيَّر ملابسُهم، ويلتقطون بعضَ أنماط العلاقات الاجتماعية

الجديدة،ويرتدون السترات والسراويل، ويتعلَّمون لُغتَنا وأساليب رقصنا، وركوب عرباتنا، وكنَّا نُروِّح بعضهم في أوروبا، ونلقِّنُهم أسلوبَ الحياة على أثاث جديد، وطرز جديدة من الزِّينة، واستهلاك أوربي، وغذاء أوربي، كما نضع في أعماق قلوبهم أوروبا، والرغبة في تحويل بلادِهم إلى أوروبا، ثم نُرسِلُهم إلى بلادهم،حيث يُردِّدون ما نقوله بالحَرْف تمامًا، مثل الثقب الذي يتدفَّق منه الماء في الحَوْض، هذه أصواتُنا تخرج من أفواههم،وحينما كنا نتحدَّث كنَّا نسمع انعكاسًا صادقًا وأمينًا لأصواتنا من الحلوق التي صنعناها،وكنَّا واثقين أنَّ هؤلاء المفكِّرين لا يملكون كلمةً واحدة يقولونها، غيرَ ما وضعنا في أفواههم، ليس هذا فحسبُ، بل سَلَبوا حقَّ الكلام مِن مواطنيهمَّ هذه الكلماتِ تبيِّن لنا سببَ حرص الغرب على مِثْل هذه البعثات المجانية لأبناء المسلمين في هذه السِّنِّ المبكرة، بل ودمجهم في أسَر أمريكية أو غربية، لها فِكرُها وقيمها، وتقاليدها المغايرة تمامًا لقِيَمنا الإسلامية، إنهم بحقٍّ قادة المستقبل بأيدٍ وفِكر أمريكي وغربي،أعِدُّوا إعدادًا خاصًّا؛ ليكونوا في المستقبل بعد أن يصبحوا القادة أبواقًا تُردِّد ما يقال لها من الغرب،وسلاحًا يسحقُ كلَّ صوت يخالف ما يريده الغرب.

الركن الثالث: تحديات في مواجهة المعلم:

والمعلم في العَمليَّة التعليميَّة لا يقلُّ أهميةً عن المنهج، والتلميذ، ولمكانة المعلِّم وأثره في بناء المجتمع، فقدْ حثَّ الإسلام على احترامه وتكريمه، إذ بدون احترامه وتكريمه لن يُخرجَ ما عنده من علوم ومعارفَ، ولا شكَّ أنَّ عدم احترامه، ومِنْ ثَمَّ عدم نصحه، يُحدِث انقطاعًا في التراكم الثقافي بين أجيال الأمَّة، ولا يخفى أثرُ هذا الانقطاع على تقدُّم الأمة وتحضُّرها، ولعلَّ هذا الأمرَ هو الذي جعل الحكوماتِ الواعيةَ الجادة في إيجاد نهضة حقيقية تبدأ أوَّلاً بإعطاء المعلِّم مكانتَه في المجتمع، ونحن في هذا الصدد نتذكَّر على الفَوْر اليابان؛ تلك الدولة التي ضُربت بالقنبلة الذرية، وبالرغم من ذلك تصبح في مدَّة عقدين من الزمان من أكثر دول العالم تقدُّمًا، وما ذلك إلاَّ لأنها اهتمتْ بالمعلِّم، فأعطتْه مرتَّبات الوزراء، ومنحتْه صلاحياتِ وكلاء النيابة أما المعلم عندنا:

أولاً: تجد وسائلَ الإعلام تسعى جاهدةً لضرب قِيمته في المجتمع، مِن خلال إظهاره مُزدرى الشكل والهيئة، كما تسعى لضرْب قِيمته في المدرسة،وداخل الفصل بين التلاميذ، وليستْ مسرحية مدرسة المشاغبين خافيةً على أحد، والإنسان يتساءل: كيف تنهض أمَّةٌ تغرس في نفوس الطلاَّب أن يتعاملوا مع المعلِّم بهذه الكيفية؟ وكم كان عرْض هذه المسرحية سببًا في تطاول الطلاَّب على الأساتذة.

ثانيًا: ضعْف راتب المعلِّم؛ مما يجعل مع غلاء المعيشة الكثيرين منهم يُقصِّرون في الشرْح في الفصل كي يَحملَ الطلاَّبَ على الدروس الخصوصية، وفي مقابل ضعْف راتب المدرِّس تجد ما يُشبه الجنون في الإنفاق على الأفلام والكُرة، وغير ذلك ولا شكَّ أنَّ هذا الوضع المزري للمعلِّم أدبيًّا وماديًّا أدَّى بالطبع إلى غياب الاحترام والتقدير اللَّذين كان يحظَى بهما في الماضي، وممَّا ساعد على انتشار هذه الظاهرة عدم احترام المعلم ما حاولتِ المؤسَّسات التعليمية تقريرَه وبقُوَّة وهو منْع التأديب المتمثِّل في الضرب غير المبرِّح ، بل وأصبح تأنيبُ الطالب وزجره وتقويمه جريمةً نكراء، فكان لا بدَّ أن تبدأ ظاهرةُ التطاول على المعلِّم، ووصل الأمر إلى الاعتداء عليه داخلَ المدرسة أو خارجَها،وربَّما يقف المعلِّم أمام القضاء كسائر المجرمين ؛ لأنَّ طالبًا قد اشتكاه، ولا شك أنَّ هذا الوضع يصرف المعلِّم عن الاهتمام بأداء واجبه،ومِنْ ثمَّ تقوَّض أسس التربية، وقواعدُ الأخلاق، وينقطع سَيْل تراكم المعرفة، فتتخلف الأمَّة عن ركْب الحضارة.

ثالثًا: إبعاد المدرِّسين الملتزمين دينيًّا، وتحويلهم إلى إداريِّين:

وتُعتبر هذه الخطة من أخبث ما دبَّرَه أعداؤنا، ونفَّذه عُملاؤهم في بلادنا؛ إذ الثابت أنَّ المعلِّم المتديِّن انطلاقًا من إدراكه لواجبه ومسؤوليته أمامَ الله، فإنَّه يجتهد في توصيل مادته العِلمية لأولاد المسلمين، ثم

انطلاقًا من غيْرته الدينيَّة، فإنَّه يسعى جاهدًا لغَرْس مبادئ الإسلام في نفوس التلاميذ، وتعريفهم بعَظمة الإسلام، ولَفت أنظارهم إلى المؤامرة على عالَمنا الإسلامي، وكلُّ ذلك يخشاه أعداؤنا، ويخافون مِن خروج أجيال مسلِمة تعي ذلك، ومن هنا حَرِصوا على إبعاد كلِّ المدرسين الذين يأتَّى منهم إفساد خطتهم وإذا كانت حكوماتُنا تجتهد في إبعاد المتدينين مشاركةً منهم في سياسة تجفيف المنابع الدينية، فهل تُلام سلطاتُ الاحتلال اليهودي في فلسطين إذا قامتْ بفصل مجموعات من المعلِّمين النشطِين فصلاً تعسفيًّا، كمحاولة منها لقطْع أرزاقهم، وحرمان الأجيال المسلِمة من التربية الإسلامية الصحيحة، وترْك هذه الأجيال تتخبَّط في ظلمات الجهل؟ بالطبع لا يُلام الصهاينة؛ إذ إنَّهم رأوا حكوماتِنا سبقتهم في هذا وحازوا قصَبَ السَّبْق في هذه المنطقة الإسلامية بعدَ مجرمي الشيوعية في روسيا، وما فعلوه في المسلمين هناك كي يُجفِّفوا منابع الإسلام هناك على المدى البعيد، ولعلَّ هذا الكلام يقودنا إلى الحديث عن خطَّة تجفيف المنابع الإسلامية في روسيا، وكيف سار على نهجها عملاءُ الاحتلال في بلادنا الإسلامية ليست مشكلة تجفيف المنابع الإسلامية وليدةَ السياسة المعاصِرة، أو وليدةَ الفكر الحديث؛ بل سياسة قديمة قِدَم ظهور الإسلام، وما محاولة المشركين التخلُّص من رسول الله ص إلاَّ بدايةً لهذه المؤامرة، وهل كان وقوف قريش ضدَّ كلمة التوحيد كي لا تصل إلى آذان القادِمين إلى مكة للتجارة أو الحج إلاَّ من هذا

القبيل؟ وهل كان قتل الصحابة وحمَلَة القرآن الذين كان يبعثهم النبي ص لتعليم الناس مبادئ الإسلام؛ كأصحاب الرجيع وبئر معونة وغيرهم إلا من قبيل تجفيف منابع الإسلام؟ لكن هذه المحاولات ما كانت لتصمد أمام تيَّار الحق الجارف الذي حملته نفوس آمَنت وصدقت في حمل رايته ،وظلَّت أساليب سياسة تجفيف المنابع في الأعم الأغلب تتَّبع نفس أساليب المشركين القديمة، حتى كان العصر الحديث، وكان تفكير الاحتلال الخبيث، وما بدأ دُهاة الغرب يضعونه من خطط لمواجهة الإسلام دون حدوث صدام مسلَّح يدرك الأعداء نتيجته مسبقًا؛ لوعيهم وحسن قراءتهم لخطِّ سَيْر التاريخ، ونتائج الصراع المسلَّح مع الإسلام.

وسوف نتحدَّث عن نموذج يُعَدُّ النموذج الأمْثَل عند أعداء الإسلام لخطَّة تجفيف المنابع الإسلامية، بل يُعَدُّ كذلك النموذج الذي احتذاه كثيرٌ من الحكَّام العلمانيين في الدول الإسلامية لمواجهة المد الإسلامي المعاصر إنها تجربة الحزب الشيوعي في بدايات القرن الماضي عندما حاول منظِّروه القضاء على الإسلام؛ كي تتمكَّن الشيوعية من الهَيْمَنة على البلاد التي حكمَتْها ومن عجيب ما يُذكَر أن هذه التجربة الأم لسياسة تجفيف المنابع رسمها مفكِّر شيوعي من أصل مسلم، اسمه سلطان جالييف، وقام الحزب الشيوعي بتنفيذها في البلاد الإسلامية التي بدأت الشيوعية تسيطر عليها ولما كان الإسلام هو الدين القادر على الصمود

أمام زحف الشيوعية، فقد عمل جاليف على اتخاذ سياسة النَّفَس الطويل للقضاء عليه.

أبعاد خطة جاليف ومراميها:

أولاً: عمل على وجوب إبعاد المسلمين عن دينهم بمراحل تدريجية لا تُثِير صدامًا أو مقاومة، قد تتَّخذ شكل حرب وطنية مع محاولة الشيوعية التظاهر بأنها لا تشنُّ حربًا على الإسلام وما كادت الحرب الأهلية تنتهي حتى بدأت الحكومة السوفيتية تهاجِم الإسلام بطريقٍ غير مباشر، وذلك بالقضاء على:

أولاً: الأوقاف باعتبارها القوة الاقتصادية التي تمدُّ علماء الدين.

ثانيًا: المحاكم الشرعية التي تمنح الإسلام السيطرة على حياة المسلمين الخاصة.

ثالثًا: التعليم الديني الإسلامي؛ لما له من أثر في تخريج أجيال مسلمة ملتزمة بدينها، معتزَّة بعقيدتها.

وقد شنَّت الشيوعية الحرب على هذه الهيئات الإسلامية في وقت واحد وفي سنة ١٩٣٠ قضت حكومة موسكو عمليًّا ونهائيًّا على مؤسسات الوقف الكائنة في طول الاتحاد السوفيتي وعرضه بعد خطوات تمهيدية تحت وعْدِها بأن توزع الأرض على الفلاحين، وبذلك حُرِم علماء الدين

من مصادر رزقهم، كما حرمت المساجد والمدارس من الوسائل المادية لدوام بقائها ومع هذه الحملة بدأت حملة أخرى على علماء الدين، وأخذت تتَّهمهم بالجهل وعدم فهم القرآن، ثم تطوَّرت إلى اتهام العلماء بالسرقة والإجرام، وأخيرًا بسوء السيرة والخلق، ولك أن تتنبَّه إلى هذه الطريقة التي تَمَّ بها التخلُّص من المحاكم الشرعية في بعض الدول الإسلامية خاصة مصر ثم تطوَّرت الحملة إلى مهاجمة الإسلام في جوهره وصميمه وبعد هذه المراحل التي تمَّت بدون صدام اتِّباعًا لسياسة النَّفَس الطويل التي رسمها جالييف فقد رأت الحكومة السوفيتية أنه قد أصبح بالإمكان تنفيذ المرحلة الثانية؛ وهي الكفاح في سبيل إقامة مجتمع شيوعي بعيد كلَّ البُعْدِ عن الأفكار الدينية ومن العجيب أن الحكومة الشيوعية لمَّا قرَّرت مجابهة الإسلام والقضاء عليه لم تترك أعضاء حزب الجديد، بل تم تصفية أكثر أعضائه أمثال سلطان جالييف.

خطة تجفيف المنابع ووسائل تنفيذها في العالم الإسلامي:

اتَّخذت الحكومات العلمانية التسلُّطية في عالمنا الإسلامي وفي الدول العربية بالذات من سياسة تجفيف المنابع التي رسمها جالييف خطَّة تسير على هداها، وتنسج على منوالها، في مجابهة الإسلام والتضييق عليه، إن لم يكن القضاء عليه وهذه بعض النماذج في الدول العربية:

أولاً: القضاء على التعليم الديني والتضييق على معاهده وجامعاته:

يُعتَبر التعليم الديني بمعاهده وجامعاته أقوى رافد يمدُّ المجتمع الإسلامي بالشباب المسلم المتفقّه في دينه، العالم بعظمة الإسلام، المعتز بهويته، وطالما أدرك الأعداء أن هذا الرافد التعليم الديني حجَر عَثْرَة في طريقهم؛ فلا بُدَّ أن يسعوا للقضاء عليه، وبالفعل تَمَّ القضاء على العديد من الجوامع الإسلامية والمعاهد التي كانت تقوم بنشر التعليم الديني؛ أمثال جامع الزيتونة، وجامع القرويِّين،وأخيراً المعاهد العلمية في اليمن، ولأهمية الأزهر في العالم الإسلامي وخبث ما يُعَدُّ له؛ سوف نخصُّه بشيءٍ من الإيضاح والتفصيل فالمؤامرة على الأزهر في العصر الحديث تمتدُّ جذورها إلى الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت، الذي أحسَّ بقوَّته ومدى التفاف الشعب حول علمائه؛ فأراد أن يتخلَّص منه ومن علمائه، فضرَبَه بالمدافع وحوَّله إلى إسطبل للخيل،وحاوَل أن يقضي على ما فيه من نفائس الكتب والتراث الفكري الإسلامي، ورغم ذلك،فشل في نيل مراده وبعده جاء الاحتلال البريطاني بدُهَاته وخبثائه أمثال اللورد كرومر، والقس دانلوب الذي سَيْطَر على مقاليد التعليم في مصر وأدرك هؤلاء الخُبَثاء خطورة الأزهر على وجودهم في مصر، حتى قال كرومر إن التعليم الوطني في قبضة الأزهر الشديد المتمسك بالدين، والذي يقف حاجزًا في طريق أيِّ إصلاح تعليمي، وكان الطَّلَبة الذين يتخرَّجون منه يحملون قدرًا عظيمًا من التعصُّب الديني، فلو أمكن

تطويره لكان خطوة جليلة الخطر، فليس من اليسير أن يُتَصوَّر أيُّ تقدُّم لنا طالما ظلَّ الأزهر متمسِّكًا بأساليبه، وإذا بدا أنَّ مثل هذه الخطوة غير متيسر تحقيقها، فحينئذ يصبح الأمل محصورًا في التعليم اللاديني، الذي يُنافِس الأزهر حتى يُتاح له الانتشار والنجاح ومن هنا بدأت الحملة ضدَّ الأزهر ومنافسته بالتعليم اللاديني، وكانت هذه هي الخطة التي بدأ بها دانلوب حرب الأزهر، حيث أراد أن يخنق الأزهر ثم يقضي عليه، دون صدام مباشر كما فعل نابليون وفشل من قبل.

بدأ دانلوب يُنشِئ مدارس مدنية، ليس القرآن ولا الدين من موادها الأساسية كما هو الشأن في الأزهر، هذه المدارس كان الناس في البداية ينظرون إليها على أنها مدارس الكفر،ويحذِّرون من إدخال أولادهم فيها، إلا أن الخطة جعلت أبناء هذه المدارس هم أصحاب المكانة والوجاهة، وهم الأكثر ثراءً؛ فسنوات التعليم قليلة، والمرتَّبات مرتفعة، ووظائفهم جاهزة،أمَّا أبناء الأزهر فمدَّة الدراسة طويلة،والوظائف قليلة،وإن وُجِدت فمقيم شعائر في مسجد بأجر زهيد أضِف إلى ذلك حرص الخطَّة على إبعاد الأزهريين عن مراكز التأثير،خاصة الثقافي والسياسي، ثم تضافرت في هذه الخطوات وسائل الإعلام التي أسهمت في تشويه صورة عالِم الدين الأزهري، وإظهاره في الأفلام وغيرها في صورة ساخرة نفَّرت الناس خاصة الناشئة من أن يكونوا أزهريين كل هذه الترتيبات جعلت

الناس ينصرفون عن الأزهر،ويرمون أولادهم في أحضان تلك المدارس التي كانوا يرونها مسبقاً مدارس الكفر .

أضِف إلى ذلك ما قام به الأعداء وعملاؤهم من إنشاء الجامعة الأمريكية، التي أُريدَ بها تحويل الأنظار وجذب الناس بعيدًا عن الأزهر؛ لما أصبح ينتظر أبناءَها من مستقبل باهر ومرتَّبات مرتفعة، وذلك بترتيبات الأعداء وإنشاء الجامعة المصرية التي حملت منذ اليوم الأول مخطَّط التعليم العلماني، وقام عليها طه حسين، وأمين الخولي، وأحمد أمين ولم يكتفِ القائمون عليها بذلك، بل طالب بعضهم أمثال طه حسين تمشِّيًا مع سياسة الاحتلال الرامية إلى عَزْل الأزهر عن الحياة وحبسه في المساجد بقصر أهداف التعليم في الأزهر على تخريج وُعَّاظ، ونادَى بعدم إقحامهم في الوظائف الأخرى .

ثانيًا: مصادرة الأوقاف التي كانت تمدُّ الأزهر بالقوَّة الاقتصادية:

وكانت هذه الخطوة من الخطوات الخطيرة، ومن الضربات القاصمة التي وجَّهوها إلى الأزهر وعلمائه وطلاَّبه؛لأن استقلال الأزهر بمواردِه المالية يُعتَبر من أقوى الضمانات لاستقلال قراره وقوَّة كلمته، فعملت القُوَى المعادية على تجريده من جميع أوقافه ونهبها، منذ عصر محمد علي وهم يحتالون للأمر حتى أمكنهم بالمكر والخديعة أن يستولوا على أوقاف الأزهر ويعطوه مالاً من خزانة الدولة وأشار إلى هذه الخديعة

الدكتور محمد البهي فيقول: إنه في عام ١٩١٥ ورَدَت رسالة من دانلوب إلى شيخ الأزهر تتأسَّف فيه وزارة الخزانة لأن المبلغ الذي خُصِّص للأزهر قليل، وقد وعد أن تصرف وزارة الخزانة مبلغ ثمانية آلاف جنيه للأزهر، بشرط أن تنتقل أوقاف الأزهر إلى وزارة الخزانة ثم أنشِئت وزارة الأوقاف التي استمرَّت بميزانية مستقلة حتى جاءت حركة الجيش في يوليو ١٩٥٦ حيث صدر قرار بضم الأوقاف إلى الحكومة وحينما ننظر إلى عملية التخلُّص من الأوقاف الإسلامية التي كانت تمدُّ الأزهر، نجد أنها قريبة من عملية التخلُّص منها في الدول الإسلامية التي سيطرت عليها الشيوعية، والتي خطط لها سلطان جالييف فالاحتلال مهَّد لها منذ عام ١٩١٥م ثم لمَّا أزعجهم دور الأزهر في ثورة ١٩١٩، قاموا باقتحام مكتبة الأزهر واستولوا على حجج أوقاف الأزهر؛ للقضاء على قوَّته وإضعافه وتدميره، ثم كانت الخطوة النهائية بضمِّ الأوقاف إلى الحكومة عام ١٩٥٦ .

ثالثًا: تطوير الأزهر: نظر الأعداء إلى الأزهر، فلم يرقهم ذلك، وعملوا على تغيير طرق الدراسة،والمناهج المقررة تحت مسمى تطوير الأزهر وكان هذا العمل مقدِّمة لما يُراود المحتلِّين من أماني في تطوير الأزهر كله، وتغيير معاييره ومفاهيمه الإسلامية ليصبح شيوخه أكثر قبولاً للأوضاع الوافدة، كالوطنية والقومية، ولتنحل فيهم عقدة رفض كلِّ ما هو غير إسلامي، حتى يمكن التفاهم مع أجيالهم الحديثة؛ لتعايش

العلمانية على الأقل، إن لم يمكن احتواؤهم، ونقل ولائهم التام إلى هذه الجاهلية الطاغية وليس هذا ظنًّا أو تخمينًا، وإنما هو فعلاً السياسة الثابتة للاحتلال وكان من خطوات التطوير التي سعى إليها دُهَاة الاحتلال: أن بدأوا يتطلَّعون بمساعدة عملائهم من أبناء المسلمين إلى إنشاء كلية لتخريج القضاة الشرعيين بعيدًا عن الأزهر وأشار اللورد كرومر إلى هذه الخطوة في تقريره حيث يقول: كنت أتَّصل بالبارون كالي حاكم البوسنة لتبادل الرأي في الموضوعات ذات الطابع المشترك، واستطعت أن أحصل بفضل مساعدته ومساعدة خَلَفه على معلومات وافية عن الكلية التي أنشأتها حكومة النمسا والمجر في سراييفو لتخريج القضاة يقصد قضاة الشرع المسلمين وهي كلية أثبتتْ نجاحها من كلِّ الوجوه، ووضعتُ هذه المعلومات تحت تصرُّف لجنة ذات كفاية ممتازة يرْأسها المفتي الأكبر السابق يعني: الشيخ محمد عبده بقَصْدِ وضْعِ خطَّة مشابهة تُلائِم ظروف مصر وحاجاتها،و أتمَّت اللجنة عملها ، ووضعت النُّظُم المقتَرَحة تحت تصرُّف الحكومة، وهي الآن قيد البحث في وزارة العدل وهذه النُّظُم تزوِّد الطالب ببرامج ثقافية ذات طابع تحرُّري، لا تحصر الطالب في الدراسات الدينية الخالصة إنها خطَّة تسير في تدرُّج حَثِيث بمناهج خاصة تُنشِئ جيلاً جديدًا من رجال الشريعة، يَقْبَلون التعايُش مع النُّظُم العلمانية، إن لم ينخَرطوا فيها بأنفسهم وإذا كان الأعداء عجزوا عن تنفيذ كلِّ أهدافهم في محاربة الإسلام ومحاربة

الأزهر، باعتباره أقوى هيئة دينية تسعى لنشر الإسلام الصحيح، وتبصِّر المسلمين بمبادئه فقد قام عملاؤهم ممَّن يتسمَّون بأسماء إسلامية ،ويتظاهرون بالإسلام بإكمال ما بدأه أعداء الأمَّة وكان موضوع تطوير الأزهر من الأمور التي سهر لها الأعداء، إلا أنهم لم يُكمِلوا الخطة إلى نهايتها، إنما قام بإكمالها عملاؤهم فيما بعد وكان قرار تطوير الأزهر الذي صدر سنة ١٩٦١م من الأمور التي دبِّر لها بليلٍ، والذي من خلاله استطاعوا أن يُبعِدوا الكفاءات علمًا وسلوكًا عن قيادة هذا الصرح الإسلامي العظيم هذا الأمر الذي وصَفَه الدكتور عبدالعظيم المطعني بأنه تأميم المناصب العليا في الأزهر ويقول ونعني بالتأميم هنا: شغل هذه المناصب المؤثرة بقرار سياسي سيادي، وهذا أمر طرَأ على الأزهر مع صدور قانون تطوير الأزهر والهيئات التابعة له هذا القانون أحدث تغييرات جوهرية في رسالة الأزهر تعليمًا ومناهج وإدارة وتنويعًا، وكان من أبرز ما فيه بالنسبة لموضوعنا ما يأتي:

١- جَعْلُ منصب شيخ الأزهر بالتعيين، وكان يتمُّ شغل هذا المنصب الجليل عن طريق الانتخاب من أعضاء جماعة كبار العلماء.

٢- إلغاء جماعة كبار العلماء، وتغيير الوسيلة التي كانوا يُنتَخبون بها أعضاءً في تلك الجماعة.

٣- تنصيب رئيس لجامعة الأزهر عن طريق القرار السياسي السيادي.

٤- شغل جميع المناصب القيادية في إدارة الأزهر وإدارة الجامعة عن طريق التعيين السياسي السيادي.

وكان لهذا أثر كبير في مجال الدعوة كمًّا وكيفًا، وأصبح أصحاب هذه المناصب يدين بشدَّة بالولاء لِمَن بيديه التعيين والعزل، وتولَّد عن هذا إحساس بالرغبة والطمع في نفوس المعيَّنين، إلا مَن عصمه الله ومن التغييرات التي أحْدَثها قانون تطوير الأزهر في الأقسام بالكليات وفي المناهج كذلك أنهم:

١- قاموا بإلغاء تخصُّص القضاء الشرعي من كلية الشريعة، وكان ذلك تبعًا لإلغاء القضاء الشرعي جملةً، بعد المسرحية التي متَّلوها ولفَّقوا فيها تهمة نكراء لقاضيين شرعيين الشيخ الفيل، والشيخ سيف.

٢- إدخال القانون الوضعي في صُلْبِ برامج الدراس لكلية الشريعة بجامعة الأزهر، وتسميتها: كلية الشريعة والقانون.

وحتى يتمَّ تحويل ولاء حمَلَة الشريعة والقانون إلى القانون الوضعي بالتدريج أولاً، وحتى يضمنوا التسليم بمبدأ ضمِّ الأحكام الشرعية إلى القانون؛ ممَّا يُتِيح للحكومات فرصة تحويرها أو تغييرها، باعتبارها جزءًا من القانون لا من الدين ثانيًا؛ فقد نصَّ قانون السلطة القضائية المصرية رقم ٤٣ لسنة ١٩٦٥م على تعيين خريجي كلية الشريعة

والقانون في وظائف معاونين ووكلاء للنائب العام للأحوال الشخصية ولا شكَّ أن هذا من الاستدراجات الخطيرة؛ حتى يضمنوا سكوت هؤلاء الخريجين وكان أخطر ما انطوى عليه هذا القانون أنه مكَّن عملاء الاحتلال من وضع غير الأكْفاء على هذه الهيئة الدينية الخطيرة، وهذا العمل كفيلٌ بإسقاط دولة من أعظم الأمم، فكيف بهيئة يتفنَّن لإسقاطها الأعداء؟.

مظاهر ضعف الهوية الإسلامية لدى الشباب المسلم

تتكاثر المظاهر التي قد يراها البعض انفتاحاً وتقدماً ورقياً في حين يراها الآخرون إذلالاً وتبعية وذوباناً للهوية ويمكنك أن ترى أزمة الهوية الإسلامية في الشباب الذي يعلق علم أمريكا في عنقه وفي سيارته، وفي الشباب الذي يتهافت على تقليد الغربيين في مظهرهم ومخبرهم، وفي المسلمين الذين يتخلون عن جنسية بلادهم الإسلامية بغير عذر ملجئ ثم يفتخرون بالفوز بجنسية بلاد الكفرة وفي المذيع المسلم الذي يعمل بوقاً لإذاعة معادية لدينه من أجل حفنة دولارات، وفي أستاذ الجامعة الذي يسبح بحمد الغرب صباح مساء وفي كل ببغاء مقلد يلغي شخصيته ويرى بعيون الآخرين ويسمع بآذانهم وباختصار: يسحق ذاته ليكون جزءاً من هؤلاء الآخرين أيبتغون عندهم العزة ؟

وبلغت الأزمة حد أن الأمة صارت تستورد قيمها من غيرها، لتبني حضارتها ولاشك أن هذا أعظم خداع للذات ؛ لأنها تبني بيتها على جرف هار، فمن يتصور أن في اتباع قيم الآخرين ومناهج حياتهم الوقاية من بطش أمم شاء الله لها العلو في الأرض زمناً والإفساد فيها إلى حين لهو واهم؛لأن صدام الحضارات والأديان والثقافات أصبح حقيقة واقعة ومعلوم من التاريخ والواقع بالضرورة.

ويرى آخرون:أن الخطر الأكبر الذي يهدد الأمم والشعوب في هذا العصر،هو ذلك الخطر الذي يمسّ الهوية الثقافية والذات الحضارية والشخصية التاريخية للمجتمعات الإنسانية في الصميم،الذي قد يؤدي إذا استفحل،إلى ذوبان الخصوصيات الثقافية التي تجمع بين هذه الأمم والشعوب، وتجعل من كل واحدة منها، شعباً متميزاً بمقومات يقوم عليه كيانه،وأمة متفردة بالقيم التي تؤمن بها وبالمبادئ التي تقيم عليها حياتها ومهما تكن الألفاظ الجامعة التي يوصف بها هذا الخطر الذي بات اليوم ظاهرةً تكتسح مناطق شتى من العالم، بما فيها المناطق الأكثر نموّاً والأوفر تقدّماً في المجالات كافة، وأياً كانت طبيعة هذه الظاهرة وحجمها والأدوات التي تستخدم في تحريكها،فلاشك أن الهوية والثقافة بخصوصياتهما ومكوّناتهما ومقوماتهما هما المستهدف في المقام الأول، وأن الغاية التي يسعى إليها الماسكون بأزّمة السياسة الدولية في هذه المرحلة،هي محو الهويات ومحاربة التنوع الثقافي، والعمل على انسلاخ

الأمم والشعوب عن مقوماتها، لتندمج جميعاً في إطار النموذج الأمريكي الأكثر إبهاراً، والأشدّ افتتاناً في العصر.

أهم المظاهر التي تدل على أزمة الهوية لدى الشباب المسلم :

١- الانبهار الشديد بالتقدم الغربي على مستوى التكنولوجيا والحضارة المادية.

٢- التطلع لمشابهة الغربيين والأمريكيين وغيرهم من الشعوب المتقدمة مع الشعور بالدونية.

٣- الهروب من القيم المقيدة للسلوك الإباحي تشبها بالغربي الجنسي والسلوكي.

٤- ضعف الولاء والانتماء للتشكيل الإسلامي القيمي والمبادئ والمعيشة.

وسائل وآليات الغرب لمحو الهوية لدى الشباب المعاصر :

١- تحريف المفاهيم الدينية، كي تتفق مع الأفكار التي تروجها العولمة المعاصرة،باستبعاد الإيمان بالغيبيات واعتباره مضادا للعقلانية العلمانية.

obeikandl.com

٢- إيجاد فئات وشرائح ومؤسسات في المجتمعين العربي والإسلامي تعمل كوكيل للثقافة الغربية،بتقديم المساعدات المالية لمشاريع أبحاثها وعقد الندوات واللقاءات التي تدعم توجهاتها الثقافية للهيمنة على الثقافتين العربية والإسلامية

٣- إنشاء مجموعة من المراكز والمؤسسات التي تؤثر مباشرة على الثقافة العربية،مثل:جامعات التنصير ومراكز اللغات والترجمة ومؤسسات خيرية ومدارس أجنبية يتمثل دورها جميعاً في التأثير الفكري والتربوي واللغوي على طلبة العلم والمعرفة، وفرض مناهجها وأفكارها مع التقليل من مواد اللغة العربية والتربية الإسلامية.

٤- يعد الإعلام مرتعاً خصباً ومجالاً فسيحاً يتم من خلاله الغزو الثقافي لإشاعة السموم والفتن من أجل تحطيم القيم والثوابت الأخلاقية، ولقد تحولت وسائل الإعلام إلى قنوات لنشر الرذيلة والانحطاط بالغريزة البشرية وانهيار السلوك الإنساني والتباس الحق بالباطل.

٥ - إن قنوات التلفزة تشكل تهديداً خطيراً ومعول هدم للهوية الإسلامية الحضارية والثقافية من خلال بث البرامج والأفلام والمسلسلات الخليعة والمسرحيات الهابطة .

كيف نحافظ على الهوية الإسلامية؟

دين الإسلام يُعْنى بتأكيد الهوية الخاصة ويرفض أطروحات الغرب العقدية والتشريعية، ويأمر بمخالفتها، فالله تعالى يقول (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) وقد روى الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ص قدم المدينة وأهل المدينة لهم يومان يلعبون فيهما، فقال: ما هذان اليومان قالوا: كنَّا نلعب فيهما بالجاهليَّة، فقال ص إنَّ الله أبدلكم بهما خيراً منهما يوم الأضحى ويوم الفطر قال شيخ الإسلام ابن تيمية :إنَّ الأعياد من جملة الشرع والمنهاج والمناسك التي قال الله تعالى: لكل أمَّة جعلنا منسكاً هم ناسكوه كالقبلة والصيام، فلا فرق بين مشاركتهم العيد وبين مشاركتهم سائر المنهاج، فالموافقة في العيد موافقة في الكفر لأنَّ الأعياد هي أخص ما تتميَّز به الشرائع قال الحافظ الذهبي رحمه الله:فإذا كان للنصارى عيد ولليهود عيد كانوا مختصين به فلا يشركهم فيه مسلم

كما لا يشاركهم في شرعهم ولا قبلتهم وجاء عن الشريد بن سويد قال: مرَّ بي رسول الله ص وأنا جالس هكذا وقد وضعت يدي اليسرى خلف ظهري واتَّكأت على إلية يدي فقال عليه الصلاة والسلام: أتقعد قعدة المغضوب عليهم أخرجه أبو داود، والمقصود بالمغضوب عليهم: اليهود، ويعلّق الإمام ابن تيمية على هذا الحديث فيقول:وهذا مبالغة في تجنب هديهم.

إنَّ محافظة الأمة المسلمة على هويتها الإسلامية، والاعتزاز بهذا الدين العظيم ، يولّد لديها الشعور بأنَّها الأمَّة التي اصطفاها الله من بين العالمين لخيريتها وسمو تشريعاتها،ولكنَّا للأسف نرى أناساً من المثقفين العرب وغيرهم ،يكفرون بهويتهم وينقلبون على واقعهم الإسلامي بالهمز واللمز ،بل ويذوبون في المشروعات الغربيَّة المناهضة للمشروع الإسلامي، والتغريب هي القنطرة التي عبرت عليها العلمانية إلى الشرق ،وهذا التغريب لم يكن لحظة انبهار؛ لأن الانبهار يزول سريعاً فتبدو الأشياء على حقيقتها ، وإنما كان لحظة عمى وعمهٍ حضاري، كان لحظة تعاقد تآمري أو على حد تعبير د محمد عمارة :عمالة فكرية وحضارية وأول أمر في الحفاظ على الهويَّة الإسلاميَّة؛ تعميق الإيمان بالله تعالى فله أثراً كبيراً في تحصين القلب ضدَّ الأفكار الهدَّامة، وقد أدرك ذلك الشيخ محمد قطب فقال:وأول ما نبدأ به من هذا الجهد، هو تصحيح منهج التلقي من أين نتلقى فهمنا لهذا الدين؟ من كتاب الله وسنة

رسوله ص وسيرة السلف الصالح رضوان الله عليهم؟ أم مما دخل على هذا الفهم الواضح المستقيم من أفكار دخيلة ومنحرفة، بتأثير عوامل متعددة أثناء المسيرة الطويلة للأمة الإسلامية،واحتكاكها الدائم بأخلاط من المذاهب،وأخلاط من الأفكار؟فإذا صححنا منهج التلقي، وصححنا ما انحرف في حس المسلمين المتأخرين من مفاهيم الإسلام الرئيسية، بقيت علينا مهمة أخرى لا تقل خطراً،هي مهمة التربية على المفاهيم الصحيحة لهذا الدين والتربية هي الجهد الحقيقي الذي ترجى معه الثمرة، لكنه لن يؤت ثمرته حتى يقوم على أساسه الصحيح .

وإليكم قصَّة تدلل على مدى ضرورة المحافظة على الهوية لكل أمَّة تريد أن تصنع لنفسها كينونة وخصوصية تتسم بها ، فنحن نعلم جميعاً ما وصلته اليابان من قوة تقنية وصناعية لا ينكرها منكر، ونتذكر جيداً أنَّ اليابانيين حين ضربتهم أمريكا بالقنبلة النووية ودمَّرت ناجازاكي وهيروشيما ،رأوا أنَّ من أسباب ضعفهم عدم قدرتهم على مواجهة الأمريكان ، وقلَّة المعلومات التقنيَّة التي لديهم ؛ فأرادوا تحقيق المناعة واستقطاب المعلومات التي يجهلونها فأرسلوا بعثات للتعلم في بلاد الغرب والنهل من علومهم الطبيعية ، حتى يرجعوا إلى اليابان وينقلوا إلى أرضها تلك التجارب الغربية الطبيعية فتنهض دولتهم ، وحين بعثت أول بعثة يابانية إلى دول الغرب رجعوا إلى بلادهم متحللين من مبادئهم ، ذائبين في الشخصية الغربية ، فما كان من اليابانيين إلاَّ أن أحرقوهم

جميعاً على مرأى من الناس في طوكيو ، ليروا عاقبة من تنكر لأمته وقيمه ، ولم يرعَ المسؤولية التي أنيطت به ، وبعد ذلك أرسل اليابانيون بعثة أخرى ، وأرسلوا معها مراقباً يراقبهم أولاً فأول ، من ناحية ثباتهم على عقيدتهم وخصوصياتهم البوذية ،ومراقبة انهماكهم في استقطاب وجذب المعلومات التي يجهلونها لينقلوها إلي واقع بلادهم، وتمضي الأيام وتكون اليابان من أكبر الدول التقنية في العالم أجمع، بل والمنافسة والمسابقة لأمريكا وأوروبا في كثير من التخصصات التقنية أليس في هذه القصة درس وعبرة بما يفعله الآخرون من غير المسلمين في الحفاظ على هويتهم، ومع ذلك وصلوا ونجحوا، وذلك لمحافظتهم على الخصوصية والهوية الخاصَّة بهم، فأولى بنا وبالأمة المشهود لها بالخيرية والوسطية أن يكون أبناؤها خير أناس يحافظون على هوية الأمة الإسلامية ، ويرعون هويتهم حقَّ رعايتها ؟ وهناك نقطة ذات أولويَّة تسهم في المحافظة على الهويَّة والخصوصيَّة الإسلامية مما يسمى:عولمة الثقافة وإشعار هذه الأمة بخطورة هذه الفكرة،وأنَّ فحواها ومحتواها طمس الخصوصيات الإسلاميَّة ،وإشغال الأمَّة المسلمة بما لدى الأمم الغربيَّة والأمريكيَّة على وجه الخصوص من ثقافات جديدة ، وإغراقهم في المستنقع الثقافي لما يسمَّى بالقرية الكونية وإذا كانت وزيرة الثقافة الدنماركيَّة اشتكت من هيمنة الثقافة الأمريكيَّة ، وقالت:لم يعد يحتمل هذا الغزو وإذا كان الرئيس الفرنسي السابق فرانسوا ميتران

وقف يخطب في الجموع المحتشدة محذّراً من تفشّي ظاهرة لبس الجينز بين الشباب الفرنسي لأنَّه مظهر من مظاهر الغزو الأمريكي فإنَّا بوصفنا مسلمين يلزمنا، أن نحذر من ذلك ونكون أشدّ إصراراً على المحافظة على هويتنا وخصوصياتنا وقيمنا ، وعدم التشبه والاقتداء بأعداء الإسلام ، كيف ورسولنا ص حذَّرنا من ذلك وقال : من تشبَّه بقوم فهو منهم أخرجه أحمد وجوَّد إسناده ابن تيمية وحسَّنه ابن حجرومن ابرز الأساليب للحفاظ على الهوية الإسلامية عدة نقاط :

١ـ التعلُّق باللَّه ـ عزَّ وجل ـ والاستعانة والاستعاذة به ، وسؤاله الهداية والثبات والممات على دين الإسلام من غير تبديل ولا تغيير ٠

٢ـ الثِّقة بمنهج الله ووعده وحكمه وأوامره ، واليقين به ومراقبته ، والشعور بالمسؤوليَّة عن حفظ الدين من شبهات المغرضين ، وعدم خلطه بالباطل ٠

٣ـ تلقّي العلم عن العلماء الربَّانيين،وإرجاع المسائل المشكلة إليهم ليحلُّوها ويوضِّحوا ما أبهم على صاحبها، فلا يستعجل في قبول فكرةٍ أطلقها من لا يؤمن فكره،ولا يبقي تلك الشُّبهة في صدره حتَّى تعظم ، بل ينبغي عليه أن يضبط نفسه بالرجوع للراسخين من أهل العلم ؛ فإن الله ـ تعالى ـ يقول:فاسألوا أهل الذكر إن كنت لا تعلمون ٠

٤ـ البناء الذاتي بمعرفة مصادر التَّلقي ، ومناهج الاستدلال الصحيحة ، وملء القلب بنور الوحي من الكتاب والسنَّة، مع ملازمة إجماع أهل السنَّة والجماعة.

٥ـ التعلَّق بكتاب الله قراءة وفقهاً وتدبُّراً وعملاً ، ولو أقبل الخلق على كتاب الله والانتهاج بنهجه ، لأجارهم سبحانه من الفتن ، فالقرآن شفاء لما في الصدور ، ومن يعرض عنه فسيصيبه من العذاب بقدر ابتعاده عنه وألَّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً * لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربِّه يسلكه عذاباً صعدا.

٦ـ تكثيف البرامج التوجيهيَّة،وأخصُّ بالذكر وسائل الإعلام بشتَّى أصنافها، ومحاولة زرع الثقة في قلوب المسلمين بالاعتزاز بدينهم وعقيدتهم.

٧ـ إنشاء مراكز الأبحاث والدراسات المعنيَّة برصد الانحرافات الفكريَّة ، والتعقيب عليها بتفنيد الشُّبه ، والجواب عن الشكوك والإثارات التي تخرج من بعض المارقين من قيم الإسلام ومبادئه ، والجهاد الفكري ضدَّها، من منطلق قوله تعالى:وجاهدهم به جهاداً كبيراً.

٨ـ تربية النشء بما يرضي الله ، والتحاور معهم بتبيين فساد شبهات أهل الزيغ والهوى ، مع قوَّة الإقناع، وأدب الحوار ، فالتنشئة الصحيحة على التحصين العقدي هي أول عمليَّة في التربية.

شروط الحفاظ على الهوية والثقافة الإسلاميتين:

ينبغي أن ننظر إلى الواقع الثقافي والفكري والإعلامي في عالمنا من زاوية واسعة ،حتي تتضح لنا الصورة العامة ، وتتبين حقائق الأمور أمام أعيننا ، فنحن نقف اليوم أمام تيار كاسح لا نملك إزاءه إلاُّ التعامل معه بحكمة ويقظة ، لأننا لانمتلك شروط المواجهة معه ، لكن لدينا شروط موضوعية لمواكبته ، والاندماج فيه ، والاسهام من موقعنا الثقافي والحضاري،في بناء عالم جديد قوامه العدل والسلام ، والتعايش والتسامح ، والتعاون الإنساني في إطار القانون الدولي ، وتحت مظلة الأمم المتحدة فهذا هو الأسلوب العملي لتلافي مخاطر العولمة ، وللتغلب على الصعاب والتحدّيات الناتجة عنها ،وللحفاظ على خصوصياتنا الثقافية والحضارية والمنهج الذي ندعو إلى اعتماده في معالجة المشكلات الناتجة عن اكتساح نظام العولمة للهوية والثقافة الإسلاميتين في هذه المرحلة الدقيقة ،يقوم على قاعدة التكامل في البحث عن حلول للأزمات الحضارية والمشكلات الثقافية ، وينطلق من رؤية شاملة إلى الواقع المعيش، بحيث لايمكن بأي حال،الفصل بين الأوضاع السياسة

والاقتصادية والاجتماعية ، وبين الأوضاع الثقافية والفكرية والإعلامية ، لأنه لاسبيل إلى تقوية الذات بتحصين الهوية والثقافة العربية والحفاظ عليهما ، في ظل أوضاع غير منسجمة مع طموح الأمة، وفي ظروف ليست مواتية، من كافة النواحي ٠

ان العالم الإسلامي محكوم بظروف صعبة ، وينبغي أن نكون صرحاء مع أنفسنا ، نسلم بأن الدولة السبع والخمسين الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي، تعاني من مشكلات اقتصادية صعبة ، وبعضها، بل أغلبها، يحتلّ المرتبة الدنيا في السجل الذي تنشره الأمم المتحدة في تقريرها السنوي عن التنمية البشرية في العالم، وتصنف غالبية هذه الدول ضمن الدول ضمن الدول التي تعيش تحت خط الفقر ، إلى جانب المشكلات السياسية التي تعم معظم االبلدان الإسلامية، التي تنتج عن الأزمات والصراعات والحروب، مما يتسبب في عدم الاستقرار، وفي ضياع فرص التنمية، وهدر الطاقات والقدرات ولا مجال للحديث عن الحفاظ على الهوية والثقافة الإسلاميتين في ظلّ هذه الأوضاع ،فالمجتمعات الضعيفة المتخلفة عن ركب التقدم الاقتصادي والعلمي والتكنولوجي، لا تقوى على الدفاع عن خصوصياتها الثقافية وميراثها الحضاري، ولا تملك أن تصدّ الغارات الثقافية والإعلامية التي تواجهها من كل حدب وصوب، ولن تستطيع أن تقف صامدةً في معترك السياسة الدولية بأمواجها المتلاطمة، حفاظاً على مصالحها الحيوية لذلك نرى

أن السبل التي يتعيّن على العالم الإسلامي أن يسلكها للحفاظ على هويته وثقافته الإسلاميتين،هي ما يلي :

أولاً : إصلاح الأوضاع العامة إصلاحاً رشيداً شاملاً، في إطار المنهج الإسلامي القويم ، والأسلوب الحكيم، ومن خلال الرؤية الشاملة إلى الواقع في جوانبه المتعدّدة، من أجل اكتساب مناعة ضد الضعف العام الذي يحدّ من حيوية الأمة ويشلّ حركتها .

ثانياً : إيلاء أقصى الاهتمام بتطوير التعليم ، والنهوض به، وتحديث مناهجه وبرامجه،مع التركيز على التعليم النافع الذي يفيد الفرد والمجتمع ويربي الأجيال على ثقافة العصر ويفتح أمامها آفاق المعرفة.

ثالثاً : تقوية التعاون بين الدول العالم الإسلامي، وتعميق التضامن الإسلامي، وتحقيق التكامل فيما بينها، وتعزيز العمل الإسلامي المشترك، في إطار تنفيذ الاستراتيجيات التي وضعتها المنتظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، وصادق عليها مؤتمر القمة الإسلامي في دوراته المتعاقبة .

رابعاً : تسوية الخلافات بين دول العالم الاسلامي ، والاحتكام إلى مبادئ الإسلام الخالدة لفضّ النزاعات، وإقامة علاقات أخوية متينة، تحقيقاً

للمصالح المشتركة، وجلباً للمنافع ودراءاً للأخطار التي تهّدد الأمم الإسلامية قاطبة .

فبانتهاج هذه السبل المستقيمة ، تتقوى الذات الثقافية، وتصان الهوية الحضارية، وتحفظ الحقوق، ويتعزَّر حضور الأمة الإسلامية في الساحة الدولية مؤثرةً ومساهمة في الحضارة الإنسانية الجديدة .

٣ ـــ آليات تعزيز الهوية

أ ـــ من الناحية الدينية

إذاً أمام هذا الواقع تتجلى أهمية العناصر التي تم التأكيد عليها كمعالم للهوية الدينية مقاصد الشريعة،الثوابت والمتغيرات فيها، فقه المصالح والمفاسد، الوسطية، وبالتالي فهي مدعمات ومقويات للهوية، تقويها لا بالهروب من الاختلاط بالثقافات والديانات الأخرى كما كان مناسباً في فترة ما، ولم يعد ممكناً في زماننا، بل بتحصين الهوية من الناحية الدينية، لتكون مستعصيةً على المسخ، وصلبةً عن الذوبان ونذكر بعض النقاط التي تبين قيمتها:

١ ـ من مقاصد الشريعة التعارف مع الشعوب لا الهروب منها

فمن الحقائق التي قررها القرآن الكريم بكل وضوح، أن التعارف بين الشعوب مقصد من المقاصد الشرعية، يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا

خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) وما كان الشرع ليجعل أمراً ما مقصداً، ثم يكون فيه ضرر على هويتنا إننا حين نعمل على تحصين هويتنا،فلا يضرها احتكاكها بهويات الآخرين، بل نسعى لتحقيق هذا المقصد الشرعي ونحتك بباقي الشعوب، ونتحقق أنه لا يزيدنا ذلك الاحتكاك سوى اعتزاز وفخر بهويتنا ونفس الوسائل التي يتيحها العصر يمكننا توظيفها للعمل على تحصين هويتنا من الضعف أو الذوبان٠

٢ ـ السلف والاحتكاك بأفكار وهويات أخرى ٠

من يرى سيرة السلف يقف على نماذج لامعة وحقائق ساطعة، تعكس الجهود التي بذلت للاطلاع على ما عند الآخرين بل إن ترجمة تراث الحضارات المختلفة، وصهره واستثماره والاستفادة منه قوى جانب الهوية عند سلفنا ثم إن السلف لم يقفوا عند حد الاستفادة، بل وأفادوا، وليس شيء ما يمنع تكرار هذا التلاقح من جديد، واستثمار كل نافع ومفيد فأرسطو مع أنه ابن أوروبا منذ ماضيها التليد، ظلت غافلة عنه وذاهلة عن تراثه حتى تعرفت على فكره من قلم تلميذه المسلم ابن رشد الحفيد، الذي نفض عن فكر أرسطو الغبار، وشرح كتبه وما حوته من أفكار، فرفعت أوروبا بأرسطو رأسها وزهت به بعدها، بعدما كانت نائمة عنه وعن فكره قرون قبلها فما الذي يمنع هذا اليوم؟٠

٣ ـ فقه المصالح والمفاسد٠

ان الأمم والشعوب لا تكون دائماً وأبداً على حالة واحدة من الرقي والتطور، وتعتورها سنن الله تعالى التي لا تتبدل ولا تتغير، (وَتِلْكَ الْأَيّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النّاسِ) وإذا كانت الأمة في حاجة إلى فقه المصالح والمفاسد إبّان عِزّها وعُلوّها، فهي أحوج إليه حال ضعفها وتَقهقُرها، لأن الجسم العليل أكثرُ تأثراً بالأمراض، وأضعف عند الصدمات من الجسم القوي السليم٠

وفي أحوال من ضعف الأمة الإسلامية أيام استحكام قبضة جيش التتار على جزء كبير منها، مر جماعة من العلماء وطلبة العلم على مجلس فيه بعض جند التتار الحاكمين وهم يقارعون الخمور فصرخ أولئك العلماء وطلبة العلم في وجوه التتار وقرّعوهم بسبب فعلهم فانبرى شيخ الإسلام بالنكير عليهم ولم ينكر على التتار لكن أنكر على العلماء الذين أنكروا عليهم تعاطيهم الخمر،فقال لهم:دعوهم فإنما حرمت الخمر لصدها عن الصلاة وعن ذكر الله أما هؤلاء فتَصرفُهم عن دماء المسلمين ولقد أعمل شيخ الإسلام هذا الفقه؛ فقه تقدير المصالح والمفاسد فلم يكتف بعدم إنكاره على من يشربون الخمر، لكنه أنكر على الذين أنكروا على التتار شرب الخمر لماذا؟ لأن صون دماء المسلمين مقدم على عدم شرب الخمر هما مفسدتان ولكن إحداهما أعظم من الأخرىوفقه الموازنة بين

المصالح والمفاسد هذا مقرر في الكتاب والسنة، فقد قال تعالى: (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) فسب الأصنام مصلحة تترتب عليها غالباً مفسدة سب الله تعالى، ومن ثم فلتُفوّت تلك المصلحة؛ مصلحةُ سب الآلهة المزيفة كي لا يعبدها الناس، درءاً لهذه المفسدة، مفسدة سب رب الناس.

دور الترجمة إلى العربية في تعزيز الثقافة وبناء الهويّة

من المعروف أنّ الدّراسات الحديثة في مجال اللّسانيات والأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية ،توصّلت إلى توضيح التّأثير المتبادَل بين اللّغة والهُوية والمقصود باللّغةِ هنا اللّغة الأمّ، وبالهُويةِ الهُويّة الفردية والاجتماعية على حدّ سواء ولقد عرف الوطن العربي في القرن التّاسع عشر وبدايات القرن العشرين نهضةً كبيرةً؛ كان للترجمة فيها دورٌ كبيرٌ وبعد أن مرّ العالم العربيُّ بسنوات عِجافٍ نسبيًا، في مجالات التفاعل الثقافي والبحث العلمي وتطوير المعارف، فإن حركة الترجمة العربية تشهد منذ مطلع القرن الحالي تأسيس منظمات ومراكز ومعاهد وصلت إلى أعلى درجات النقل من اللغات الأجنبية إلى العربية، وهو الأمر الذي يدلّ على أن العالم العربي يلج في عصر جديدٍ من النّهضة الفعلية الواعدة.

نمو الوعي المعاصر بالهوية الاسلامية:

نتيجة لنمو حركة الوعي الثقافي في البلاد الإسلامية؛ مر الفكر الإسلامي بمرحلة تجديد لفتت الانتباه نوعاً ما إلى أهمية التوعية بهوية الأمة[1] وتميزها عما عداها، بوسطيتها، ونشرها للعدل والرحمة، وشمولها في مبادئها وأحكامها، واستيعابها لجميع جوانب الحياة وكل مظاهر الشخصية، وتحديد لصاحبها بكل دقة ووضوح هدفه وغايته (قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ)،وتدعو حركات التجديد تلك إلى العمل على تعزيز الهوية بأقوى سلاح، وهو العودة إلى الإسلام وتربية الأمة عليه بعقيدته القائمة على توحيد الله سبحانه وتعالى، والتي تجعل المسلم في عزة معنوية عالية (وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) فللهوية علاقة أساسية بمعتقدات الفرد ومسلماته الفكرية والتي تحدد سماته الشخصية، ومن خلال هوية الأفراد تتشكل هوية المجتمع وضربت الدول الغربيةُ في العصر الحديث أعظم الأمثلة في المحافظة على هُويتها، واتخذت هذه الدول من العولمة المزعومة ستارًا لنشْر ثقافتها، وصبغ دول العالم بصبغتها، ومقابل ذلك حرصتْ على

١- أزمة البحث عن هوية في مواجهة الحضارة الغربية- محمد فاروق النبهان الإسلامية – ص٢١٣_ ٢١٤

ألا تعطي فرصة للهُويات الأخرى أن تتحرَّك، أو تثبت وُجُودها.

الغرْب يحافظ على هويته

وكان النموذج الأمريكي هو النموذج الأمثل في ضرب أعظم مثال في فرض هويته،واحتكار الهويات الأخرى، ومُحاولة غزوها في عقر دارها، ولم يقتصرْ هذا النهَم الأمريكي في فرْض هُويته على عالمنا الإسلامي، بل امتدَّ حتى شمل دولاً غربية ونصرانيَّة وتنبه حراس المشروع الثقافي الفرنسي، وأهل الغيرة على الهُوية الفرنسية لهذا النهم الأمريكي، مما جعلهم يرفضون التوقيع على الجزء الثقافي من اتِّفاقية الجات، ورفعوا شعار: الاستثناء الثقافي، بل وصل الأمر بحراس المشروع الفرنسي أن يستصدروا قانونًا يحظر على الفرنسيين أن يستخدموا أيَّة لغة أجنبية في خطابهم العام، وإلا تعرَّضوا لغرامة تصل إلى ألفي دولار.

وإذا كان هذا الحرْص على الهُوية بين الدول الغربية من بعضها على ما بينها من تقارُب واتِّفاق، فما بالنا بمدى خَوْفهم على هُويتهم جميعًا من الهُوية الإسلامية المخالفة لهم قلبًا وقالبًا؟ وليس خوفُ الغرْب من الهوية الإسلامية، واحتدام الصِّراع بين الحضارتين، بالأمر الجديد المحدَث، إنما هو أمرٌ قديم، حدَّد قدمه صمويل هانتنجتون حينما قال: إن الصراع على طول خط الخلل بين الحضارتين الغربية والإسلامية يدور منذ ١٣٠٠ عام، والأمر المثير للعجب: أن الهُوية الإسلامية كانتْ

تنتصر على الهُويات المصارعة لها، سواء أكانت الهُوية الإسلاميَّة في حالة قوة أم في حالة ضعف وهذه الحقيقة التاريخية هي التي تجعل قادة الغرب المعاصرين يتخوَّفُون من الإسلام أشد التخوُّف.

قادة الغرب المعاصرون والخوف من الهوية الإسلامية:

لئن كان تأثير الهوية الإسلامية في الهويات الأخرى، بل وإذابتها لها، وصهر أصحابها في بوتقة الإسلام في حالة انتصار الإسلام وقوته من الأمور العادية؛ انطلاقًا من قاعدة تأثر المغلوب بالغالب، فالعجيبُ أن تصهر في بوتقتها الهويات الأخرى، والمسلمون في حالة تراجُع وانهزام وهذا ما حدَث بالفعل في الحروب الصليبية الأولى، وفي حروب التتار والمغول،حتى تحوَّل الغُزاة الوثنيون إلى مسلمين، يحملون راية الإسلام، ويمكنون له في الأرض وهذه الظاهرةُ أدْركها الغربُ المعاصر، فوضع من الترتيبات والتدابير ما يحصن به العقل الغربي حينما يغزو بلاد الإسلام من الوقوع فيما وقع فيه السابقون، وهل كان الاستشراقُ إلا وسيلةً من وسائل هذا التحصين الفكري للعقل الغربي؛ يقول الأستاذ محمود شاكر: وبيِّنٌ لك الآن بلا خفاء أن كتب الاستشراق ومقالاته ودراساته كلها مكتوبة أصلاً للمثقف الأوروبي وحده لا لغيره، وكتبتْ له لهدفٍ معين في زمان معينٍ، وبأسلوب معين، لا يراد به الوصول إلى الحقيقة المجردة، بل الوصول الموفق إلى حماية عقل هذا الأوروبي

المثقف من أن يتحرَّك في جهةٍ مخالفة للجهة التي يستقبلها زحف المسيحية الشمالية على دار الإسلام في الجنوب، وأن تكون له نظرة ثابتة هو مقتنع كل الاقتناع بصحتها، ينظر بها إلى صورة واضحة المعالِم لهذا العالَم العربي وثقافته وحضارته وأهله، وأن يكون قادرًا على خَوْض ما يخوض فيه من الحديث، مع من سوف يلاقيهم، أو يُعاشرهم من المسلمين، وفي عقله وفي قلبه ولسانه ويقينه،وعلى مده بمعلومات وافرة يثق بها، ويطمئن إليها، ويُجادل عليها، دون أن تضعفَ له حمية، أو تلين له قناة، أو يتردَّد في المنافحة عنها أو يتلجلج، أيًّا كان الموضوع الذي تدفعه المفاوضة إلى الخوض فيه [1] وواضح من هذا الكلام أن الهدف الأهم من وراء الاستشراق هو إقامة حصن ثقافي قوي، تَتَحَصَّن به الهُوية الغربيَّة إذا ما هجمت على دار الإسلام؛ حتى تتفادى السقوط القديم في التأثُّر بالفكر الإسلامي ولم يقفْ خَوْف الغرب منَ الهُوية الإسلامية عند قادة الثقافة والفكر، بل جاءتْ عبارات القادة السياسيين والعسكريين تُبَيِّن مدى خوف هؤلاء أيضًا من الهُوية الإسلامية يقول نيكسون رئيس الولايات المتحدة سابقًا: إننا لا نخشى

١- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا - محمود شاكر ص ٦١ ، ٦٢

الضربة النووية، ولكن نخْشى الإسلام والحرب العقائدية التي قد تقضي على هوية الغرب وقال أيضًا: إن العالَم الإسلامي يشكل واحدًا من أكبر التحديات السياسية للولايات المتحدة الأمريكية الخارجية في القرن الحادي والعشرين وهذا أيضًا مسؤول في الخارجية الفرنسية يُصَرِّح وبكل وُضُوح: إن الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديدًا مباشرًا عنيفًا هو الخطرالإسلامي وهذه بعض العبارات مِن وثيقة لوزير المستعمرات البريطانية أورمس جو في ٩ / ١ / ١٩٣٨م، وهذه الوثيقةُ محفوظة فى المركز العام للوثائق بلندن تحت رقم ٣٧١ / ٥٥٩٥ جاء فيها: إن الحرب علَّمَتْنا أنَّ الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه، وليستْ إنجلترا وحدها هي التي تلتزم بذلك بل فرنسا أيضًا، ومِن دواعِي فرحنا أن الخلافة الإسلامية زالتْ، لقد ذهبتْ ونتمنى أن يكونَ ذلك إلى غير رجعة، إن سياستنا تهدف دائماً وأبدًا إلى منْع الوحدة الإسلامية، أو التضامُن الإسلامي، ويجب أن تبقى هذه السياسة كذلك، إننا في السودان ونيجيريا ومصر ودول إسلامية أخرى شجعنا وكنا على صواب نمو القوميات المحلية، فهي أقل خطرًا من الوحدة الإسلامية، أو التضامن الإسلامي.

إن موضوع الهوية وكيفية الحفاظ عليها في حاجة إلى جهود ضخمة لا يسع مقال كهذا إلى حصرها، لكننا سنمر عليه مروراً سريعاً نذكر فيه رؤوس أقلام لأهم سبل المواجهة للمحافظة على هويتنا:

- فعلى المستوى العقدي: على المجتمعات الإسلامية حكومة وشعباً تنمية هذا الجانب، والاهتمام به لأنه الضمانة الوحيدة لبقاء واستمرارية الحياة بهذه الهوية، فجانب الدين والعقيدة بالنسبة للهوية بمثابة الروح بالنسبة للجسد، وبفقدها تتحول كل المكتسبات العلمية والثقافية والأدبية إلى نقم، ومنغصات؛ على هذه الشعوب، وإلى معاول هدم لحضارتها.

وهذه التنمية تكون بإحياء حركة تجديد الدين بالمفهوم السلفي الواضح؛ لنعود إلى منابع الإسلام الصافية متمثلة في منهاج النبوة بعيداً عن مخلفات القرون، والدعوة إلى حتمية الحل الإسلامي لمعضلات واقعنا الأليم، وتحرير الهوية المسلمة من كل مظاهر الخور والتبعية والتقليد، والقضاء على العقبات التي تحول دون تطبيق الإسلام كمنهج شامل للحياة، والتصدي لمحاولات تذويب الهوية الإسلامية، وقطع صلة الأمة بدينها.

- وعلى المستوى التأريخي: لابد من العمل على استعادة ذاكرة التاريخ مرة ثانية للوقوف على تاريخ هذه الحضارة، وذلك لأن التاريخ عنصر مهم من عناصر الهوية الإسلامية، ويشمل ذلك سرد الأحداث السياسية

والاقتصادية والعسكرية المتصلة بحقب مختلفة، وتحليلها في ضوء الدوافع والآثار والظروف الزمانية والمكانية، فقد ضمت مصادر الإسلام كثيراً من النصوص التاريخية، والغاية من التحليل استنباط العبر من النصر أو الهزيمة، والتأمل في قصور العقل البشري، فالانتصار سيظل موضع فخر الأجيال المتعاقبة، والهزيمة ستبقى محل اعتبار القرون المتوالية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ٠

- وعلى المستوى الثقافي: لابد لنا من ملء الفراغ الحضاري الذي وصلنا إليه؛ بتطوير معارفنا، والعمل على استيعاب القديم بعقل منفتح، كذلك علينا الحفاظ على اللغة الحافظة والناقلة لهذه الثقافة لأنها الضمانة الوحيدة لاستمرار هذه المكون وتطوره، ولا بأس بعد ذلك من الانفتاح على الآخر للاستفادة من علومه ومعارفه، وهي إشكالية أوجزها الدكتور محمد عمارة في معرض حديثه عن العولمة وكيفية مواجهتها بقوله: لابد -في مواجهة العولمة الغربية من التمييز في بين مستويات ثلاث: فهناك الإنسان الغربي وهذا لا مشكلة بيننا وبينه؛ بل إن لنا في بعض دوائره الفكرية وتياراته السياسية الكثير من التفهم والمناصر والتأييد، وهناك العلم الغربي وخاصة ثمرات إبداع العبقرية الغربية في العلوم الطبيعية وتطبيقاتها، وفيه تتمثّل الحكمة التي نحن مدعوون بمعايير الدين والدنيا إلى طلبها، والتتلمذ على أهلها، والاستلهام لحقائقها

وصوابها، وهناك أخيراً المشروع الغربي الذي لا نعاديه إلا عندما ينفي مشروعنا العربي والإسلامي ٠

- ومن عوامل الحفاظ على الهوية إضافة إلى ما سبق: تعزيز الاعتزاز بالذات، ويأتي ذلك عن طريق تنمية الثقة لدي أفراد المجتمع المسلم في أمته وحضارتها، فالأمة التي لا تثق بقدراتها، ولا تقدر إمكاناتها الذاتية حق قدرها؛ لا يمكن إلا أن تكون على الدوام ظلاً للآخرين، تابعة لهم، لا تعتمد إلا ما يقولون، ولا تنفذ إلا ما يقررون، وهذا هو التسول الحضاري بعينه، الذي يُمثِّل قمة العجز والفشل والاستسلام أمام التحديات التي تواجهها ٠

- كذلك لابد من الاستعانة بإعلام إسلامي متخصص متطور ومساير للعصر ولروح الشريعة في آن واحد، لمزاحمة الإعلام الموجه المسيطر على كافة جوانب الحياة في عالمنا العربي والإسلامي، حيث صار إعلامنا في ظل هذه العولمة أو بالأصح الأمركة لا يبث إلا ما يخدم أهداف المشروع الغربي، حتى أصبح من الصعب التفرقة بين قنواتنا بما تحمله من محتوى إعلامي؛ وبين القنوات التي تبث من دول الغرب ٠

دور الصحوة الإسلامية في رسم وحدة هوية الأمة الإسلامية

الصحوة الإسلامية تهدف بمفهومها العام للحفاظ يقينا على هوية الأمة موحدة من غير تبديل ولا أنحراف ولا تغيير للمحتوى ولا لبس للباطل ولا تقليد أعمي فالصحوة مرداها حماية معالم الهوية تميزا عن الغير ومطابقة للذات وإليك بعض النقاط العامة التي تبين كيف من الممكن للصحوة الإسلامية أن تلعب دورا رئيسا في رسم وحدة هوية الأمة ٠

١- بناء الإنسان المتكامل ، ليكون بحجم التحدي ، وتربيته على أخلاقيات عقائدية تمنحه المناعة الحضارية المطلوبة، ولعل أهم مرحلة في هذه التربية العمل على إشاعة وترسيخ القيم العقائدية والإيمانية؛ لأن بها وقف الجيل الأول من الأمة في وجه كل اختراق، واستطاعوا ترسيخ المبادئ العامة للإبداع الحضاري ، الذي يكرم الإنسان كيفما كان نوعه ولونه وجنسه فبدون هذه الخطوة الأساسية ومع تفشي آفة القطيعة بين العقيدة والسلوك في حياة المسلم المعاصر لن يكون بإمكاننا الوقوف طويلاً في وجه الزيف الحضاري القادم٠

٢- تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة التي أصابت ثقافتنا، مما أدى إلى انحراف الفرد والمجتمع، فالتوكل أصبح تواكلاً، والإيمان بالقدر أصبح عجزاً وقعوداً عن العمل، والزهد أصبح خمولاً وقعوداً عن العمل،

والعبادة رهبنة وانقطاع عن الحياة، وذكر الله _سبحانه وتعالى_ أصبح تمتمات وهمهمات وأقوال بلا أفعال، كما يجب أن نوضح ونبرز المقاييس الثقافية الإسلامية الصحيحة وتفعيلها في الإنتاج الثقافي الذي يحمل مفاهيمها الحقيقية.

٣- يجب على الأمة الإسلامية أن تسارع في الاستفادة من مكتسبات التكنولوجيا في وسائلها الإعلامية، خاصة الأقمار الصناعية والقنوات التلفزيونية واستعمالها في توعية وتثقيف الأطفال والشباب وحمايتهم من الوقوع في فلك الانحراف والضلال وحماية وجود الأمة الإسلامية وغيرها من خطر الغزو العلمي والتكنولوجي الجديد، وبخاصة أن الثقافة الإسلامية ثقافة عالمية، ورسالة الإسلام جاءت للبشرية جمعاء، كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

٤- تجديد الخطاب الثقافي الإسلامي وتطويره، بحيث يلائم روح العصر مع ضرورة الحفاظ على أصالة الثقافة الإسلامية ومضمونها من أجل خدمة الهوية الإسلامية.

٥- ضرورة وضع ضوابط وقيود وإشراف من قبل مختصين عند استخدام شبكة الإنترنت، وبخاصة فيما يتعلق بالبرامج الإباحية والمنافية لقيم وثقافة المجتمعات الإسلامية.

٦- ينبغي إنشاء مراكز ثقافية إسلامية موحدة تهتم بدراسة قضايا العصر، سواء كانت ثقافية أم اجتماعية أم حضارية فور ظهورها ومن ثم متابعة تطورها ووضع التصور السليم للموقف الإسلامي إزاءها، وهذا يتطلب عقد الندوات العلمية والمؤتمرات الثقافية وإيجاد مراكز ثقافية موحدة، لا يعني إطلاقاً إلغاء التنوع والتعدد الثقافي، وإنما يعني السعي نحو تأسيس رؤية ثقافية كونية ناتجة عن التفاعل الإيجابي والحر بين مختلف مراكز الفكر والثقافة، فالتوحد ضمن حقيقة التعدد والاتفاق ضمن حقيقة التنوع .

٧- الانفتاح على الثقافة الغربية والاستفادة من تطورها العلمي والتكنولوجي ينبغي أن يكون من خلال استراتيجية تضمن إيجابية هذا الانفتاح؛ لأن الانفتاح المذموم هو الذي أدى إلى ذوبان الشخصية الثقافية بسبب الانهيار والاغتراب عبر منافذ الاختراق والتغريب، والإسلام لا يمنع الانفتاح المحكم الرامي نحو الاستفادة من علوم الآخرين النافعة.

٨- المشروع الحضاري الإسلامي لا يمكن أن يحقق تميزه الإسلامي، ومن ثم أداء دوره العالمي وفق منهج الله إلا إذا ركن إلى العلم الشرعي بمعناه الواسع وتم تأهيل العالم المسلم بحيث تكون دراسته لعلم الشريعة مرتبطة بالوقائع الحية التي تعيشها الأمة والعالم في هذا العصر ٠

٩- إيجاد بيئة صالحة للحوار بين أتباع المذاهب الإسلامية المختلفة يسودها لغة العلم والحوار ، ويطغى عليها ثوب الأدب والرشد ، وغايتها الوصول لحال واحد يجمع شتات الأمة وإن أختلفت اجتهاداتهم الفقهية ٠

١٠- إيجاد منبر إعلامي حر غير مسيس خاص بالمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب يشارك به الاساتذة والعلماء من شتى الدول الإسلامية والعربية وكبادرة راقية للأمة للتواصل والتفاهم ٠

الهوية الإسلامية وتحقيق الغلبة الحضارية:

الأمة الإسلامية في عصورها الأولى لما كانت رائدة العلم والحضارة، احتلت الهوية الإسلامية الصدارة في العالم، واستمرت على ذلك ردحاً من الزمن ولما تراجعت شعوب الأمة الإسلامية تراجعاً خطيراً إلى الأمية بعوامل مختلفة، تراجعت معها هويتها تراجعاً طردياً رغم أن شعوب الأمة الإسلامية في العصر الحاضر بدأت تستعيد ما يمكن أن نطلق عليه ازدهاراً ملموساً في الجانب الحضاري المادي من جهة، والجانب الفكري من جهة، وبدأت تتخلص من الأمية العارضة الخارجة عن هويتها، إلا

أن هذه النسبة ما تزال دون المطلوب وهذا يعود إلى طبيعة خلاص الشعوب الإسلامية من أعراضها المرضية الطارئة وطبيعة ارتقائها، وعائد إلى مكائد الدول الكبرى غير الإسلامية لإبقاء شعوب الأمة الإسلامية محجوبة عن الارتقاء الحضاري بدافع نزعات استعمارية، وتخوفها من عودة الإسلام للنهوض بالشعوب الإسلامية في ركب الحضارة المادية لذا على شعوب الأمة الإسلامية التوجه للتحقق بما وجهها الله له، وأن يعملوا بجهد مكثف للارتقاء الحضاري الشامل لهذه الأمة الإسلامية التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس إذا حافظت على هويتها التي أوصاها الله ورسوله بأن تحافظ عليها.

obeikandl.com

أهم المصادر والمراجع:

١- دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية- محمد محمد عبدالقادر الخطيب٠

٢- جاهلية القرن العشرين - محمد قطب ٠

٣- شخصية المسلم كما يصنعها الإسلام -عبدالمنعم النمر٠

٤- الغزو الثقافي والمجتمع العربي المعاصر- محمد سيد محمد

٥- حقيقة القومية العربية- محمد الغزالي

٦- الإسلام والحضارة الغربية -محمد محمد حسين

٧- الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة- القرضاوي

٨- نظرات في التربية الإسلامية - سعيد إسماعيل

٩- مؤشرات حول الحضارة الإسلامية -عماد الدين خليل٠

١٠- حاضر العالم الإسلامي - على جريشة

١١- الشباب المسلم في مواجهة التحديات - عبدالله ناصح علوان

١٢- تعميق الانتماء لدى شباب الجامعات المصرية -عبدالعزيز محمد عطية

١٣- التحديات المعاصرة التي تجابه المجتمع الإسلامي -ناصر على أحمد بشيه ٠

١٤- التعليم وتحديات القرن الحادي والعشرين- جابر عبدالحميد جابر

١٥- التحديات العلمية والتكنولوجية ودور التعليم العالي في مواجهتها - حمود السعدون

١٦- تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي – د- أبو زيد شلبي٠

١٧- أهمية التعليم في الحفاظ على الهوية الإسلامية – د=بدر البدر ٠

١٨- بعض مؤشرات الحفاظ على الهوية - د/سليمان العقيل ٠

١٩- الأمة الربانية الواحدة عبد الرحمن حبنكه٠

٢٠- كواشف زيف في المذاهب الفكرية المعاصرة -عبد الرحمن حبنكه٠

٢١- تجديد الوعي- د/عبدالكريم بكار٠

٢٢- معالم الشخصية الإسلامية -عمر سليمان الأشقر٠

٢٣- البحث عن هوية تربوية -علي أحمد مدكور

٢٤- أزمة البحث عن هوية في مواجهة الحضارة الغربية - محمد فاروق النبهان ٠

٢٥- هويتنا الإسلامية بين التحديات والانطلاق - محمد إسماعيل و جمال سلطان٠

٢٦- تاريخ المذاهب الإسلامية- الشيخ محمد أبو زهرة٠

٢٧- أخطاء المنهج الغربي الوافد- أ٠ أنور الجندي،

٢٨- العواصم من القواصم، تحقيق: الشيخ محب الدين الخطيب

٢٩- الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر- محمد الغزالي

obeikandl.com

٣٠- الإسلام قوة الغد العالمية- باول شمتز، ترجمة -د محمد شامة
٣١- محاكمة فكر طه حسين- أنور الجندي ٠
٣٢- شاهد على العصر -مذكرات محمد لطفي جمعة ٠
٣٣- رحلتي من الشك إلى الإيمان- د مصطفى محمود
٣٤- اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب- أنور الجندي ٠
٣٥- تاريخ الغزو الفكري والتغريب - أنور الجندي ٠
٣٦- حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب - د هاشم حسن فرغل٠
٣٧- عولمة اللغة أم لغة العولمة -إبراهيم حمدان ٠
٣٨- كتاب الخصائص- أبو الفتح عثمان بن جني٠
٣٩- اللغة العربية بين حماتها وخصومها- أنور الجندي٠
٤٠- الإيديولوجيا والهوية الثقافية -جورج لارين٠
٤١- الشباب العربي ومشكلاته- عزت حجازي٠
٤٢- العولمة والهوية الثقافية- محمد عابد الجابري٠
٤٣- الشباب العربي ومشكلاته -حجازي عزت ٠
٤٤- العولمة الثقافية وأثرها على الهوية - خالد بن عبد الله القاسم ٠
٤٥- الهوية الوطنية - أحمد بن نعمان ٠
٤٦- العولمة وقضية الهوية الثقافية في ظل الثقافة العربية المعاصرة- محمد بن سعد التميمي ٠
٤٧- الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية- حسن حنفي ٠

obeikandl.com

٤٨- مخططات الاحتلال لمكافحة الإسلام- محمد محمود الصواف٠
٤٩- التعريفات- الشريف الجرجاني ٠
٥٠- مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، د محمد عمارة٠
٥١- العولمة وعالم بلا هوية، محمود سمير المنير٠
٥٢- صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي- صامويل هنتنجتون، ترجمة طلعت الشايب ٠
٥٣- حتى لا تضيع الهوية الإسلامية والانتماء القرآني- أنور الجندي٠
٥٤- فخ العولمة، هانس بيتر مارتن، هارالد شومان، ترجمة: د عدنان عباس علي ٠
٥٥- العولمة الثقافية وموقف الإسلام منها- د إسماعيل علي محمد٠
٥٦- العولمة والتحدي الثقافي- د باسم علي خريسان٠
٥٧- العالم من منظور غربي، د عبدالوهاب المسيري٠

obeikandl.com